

هدى الزينى

يوميات امرأة عربية فى باريس



الأعمال الخاصة



يوميات امرأة عربية فى باريس

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : **عربية فى باريس**

التقنية : **كولاج بالكمبيوتر**

اختار مهندس الكمبيوتر لوحة للفنان هانى، نقلا عن مجلة الوسط (العربية التى تصدر فى لندن)، ودمجها مع صورة لباريس فى ساعات المساء، مبرزا فيها برج إيفل. والصورة تعتمد على الألوان الغامقة، وفيها مسحة سحرية، ورغم اللون الداكن فإن مناطق الإضاءة تشع بالنور فى أماكن مختلفة، وهو ما أضاف الحيوية والسخونة والدفء إلى باقى العناصر الفنية فى اللوحة، فالإضاءة الواضحة فى المناطق السفلى من المساحة بومضها المشع تنتقل بالعين من مكان إلى مكان فى رحلة بصرية للتعرف على الملامح المختلفة، وكأن المشاهد يرى الرحلة بعيون المرأة العربية التى أجاد رسمها الفنان هانى.

محمود الهندى

يوميات امرأة عربية في باريس

هـدى الزيـنـى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

يوميات امرأة عربية فى باريس

هدى الزينى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

أوهام عند أعتاب مدينة خرافية

باريس.. كانت مدينة الحلم التى تملأ مساحات عقلى، مع كل يوم أستعد فيه للسفر كنت أعيش هاجس الأحلام والطموحات..

أحط فى ساحاتها العريقة، عصفورًا أزرقًا يستعد لغزو العالم بجناحيه الصغيرين، أحلم بالتسكع على ضفاف نهر السين، فوق جسوره العريقة، أتأمل روعة المتاحف والأرضفة التى تهادى عليها العشاق تحت ضوء القمر، مقاهيها ومسارحها ومعارضها كل الأشياء الخارجة من عبق التاريخ. كل هذه الأحلام التى جمعتها فى الذاكرة، من الكتب والأقلام.. ها هى اليوم تتسج أولى خطوطها، عندما تغادر الطائرة مدينتى.

ألقيت نظرة سريعة على دمشق التى تختفى رويدًا رويدًا.. ثم حاولت أن أنسى فى صفحات كتابى، قبلات الأهل، وتمنيات

الصديقات. ودموع الأحباء. خوفًا من أن أتراجع عن قرارى فى خوض هذه المغامرة الصعبة الجديدة.

قال لى أحد أقربائى قبل أن أسافر،وكان له مع باريس تجربة طويلة:

«لن تستطيعى الاستمرار فى هذه المدينة الغامضة الصعبة. إنها مدينة بلا قلب لن تمنحك ثقتها، ولا لحظة الأمان، ستشعرين أنك وحيدة مشردة وسيشغل لياليك بالأرق والدموع، وتشتهين لحظة العودة إلى الوطن بأسرع ما يمكن»..

قلت له بجرأة وتصميم: «سأصمد.. وسأخوض مغامرة السفر والاغتراب. إنها فرصتى الوحيدة كى أضع نفسى أمام الامتحان الصعب لشخصيتى وقوة إرادتى»..

لم يدعنى أكمل، لأن ضحكته الساخرة أوقفتنى لتوى عن الاسترسال فى نقاشه ففضلت الصمت.. فهو يعرف باريس أكثر منى. تابع ساخرًا.. «ويا عزيزتى فى باريس لم يصمد الرجال.. فكيف أنت.. ولا تعرفين أبعد من حدود بلدك الصغير وتجربتك المتواضعة فى الحياة».

بادر بسؤالى كأنه يتعمد إحراجى.. هل تعرفين اللغة الفرنسية؟.

أجبت بالنفى وبالفعل، فأنا لا أعرف من هذه اللغة إلا بضع كلمات لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة.

وسألنى مرة أخرى.. «هل لك أصدقاء هناك يمكن أن يقدموا لك المساعدة حتى تتعودين البلد.. وتتعلمين على الأقل لغتها..

هززت رأسى بالنفى، وحاولت أن أهرب من الجلسة، حتى لا يفسد علىّ أحلام السفر والمغامرة.

مع ذلك.. قررت الرحيل.. وها هى الطائرة تشرف على باريس، أبحث بلهفة عن ملامحها المعروفة أين برج إيفل،وقوس النصر.والبانثيون، والإنفاليد؟. بينما يتنازعنى شعور غامض بين الخوف والفرح. أشعر وكأنى غادرت رحم مدينتى الآمن الدافئ.. وانتقلت إلى حياة جديدة لا أعرف ملامحها. وأسرارها.

فى مطار أورلى، أتلفت حولى غريبة وضائعة، ليس من وجه مألوف واحد يمكن أن يمنحنى إحساس الأمان، والمساء يخيم على المدينة موحشًا غامضًا.

فى أول تاكسى، أضع حقائبى الكثيرة.. قلت للسائق بالإنجليزية «أريد فندقًا». فهم من كلمة (هوتيل) قصدى ومن حسن حظى أن هذه الكلمة «دولية» انطلق التاكسى فى شوارع باريس، تأملت بناياتها العالية، شوارعها الفسيحة، أنوارها المبهرة وأحسست أننى كقشة صغيرة في بحر غامض ومجهول.. سألت ننفسى هل يمكن أن أتعود على نمط الحياة فى بلد كبير كفرنسا.. وأنا القادمة إليها لا أحمل إلا معلومات بسيطة، لا أتقن لغتها ولا أعرف أسلوب الحياة فيها.

لحظتها شعرت بالهلع من خوض هذه المغامرة التى لا أعرف حجم الخسائر والمتاعب فيها، رنت ضحكة قريبى الساخرة فى

أذنى، تمنيت لحظتها أن أعود بنفس التاكسى إلى المطار وأعود إلى الوطن ليرتاح رأسى من هذه الدوامة المخيفة.

ويبدو أن الظروف لن تظل بائسة كما ظننت وتوهمت.. فقد كان موظف الاستقبال فى الفندق عربيًا (من تونس) يدرس صباحًا الكمبيوتر ويعمل فى الليل داخل الفندق، ليستطيع أن يجابه مصاريف الحياة والدراسة رحب بى بالعربية وأعطانى غرفة صغيرة فى الطابق الأخير فى الفندق.

صعدت إلى الطابق السادس على أقدامى.. وأنا أتعثر بأحمالى الثقيلة. ولم أصل إلى الغرفة إلا وأحسست بأنفاسى تكاد تتقطع.

كانت الغرفة ذات سقف مائل. ونافذة صغيرة فى أعلى السقف تستخدم كفتحة للتهوية، السرير الصغير.. لا يكفى ليتسع قامتى.. خزانة مهترئة خشبية تكاد تسقط كلما حاولت أن أضع فيها حاجة من حاجاتى، طاولة صغيرة وكرسى ومغسلة قديمة عفا عنها الزمن من كثرة الاستعمال. حقائبى مرمية فى الركن الصغير الذى ظل شاغرًا.. حتى أننى كنت أتعثر بها كلما خطوت خطوة داخل هذا المكانن الضيق الذى شبهته بزننزانة منفردة فى سجن عتيق أو بجحر رواية (الإنسان الصرصار) للكاتب الروسى «دوستيو فسكى» أحاول أن لا أيأس.. وأن أتماسك بعض الشى.. أقنع نفسى بأن البداية لابد أن تكون صعبة ومرة.. وعلىّ إحتمالها حتى أتجاوز المشاكل الأولى من تعلم اللغة الفرنسية والبحث عن مسكن.. ثم العمل... والإقامة.. وشؤون أخرى كثيرة.

يخرجنى من أفكارى صوت يأتى من خلال الغرفة التالية.. صوت رجل.. لا أتبينه جيدًا يتحدث بنبرة عالية يرتفع الصوت.. ثم تتالى بعده أصوات أخرى.. امرأة تناقش. رجل يرد عليها. وأشعر بأننى أمام معركة ستتم فى الطرف الآخر من رواد الطابق السادس.

يهدأ الحوار ويتناغم ليصير ناعمًا كالهمس. أخاف أن تكون غرف الفندق مسكونة بالأشباح فأنا أعرف أن الطابق خالى إلا من بعض السكان وأغلبهم من الطلبة الغرباء. أو العمال الذين لا يجدون مسكنًا فى هذه المدينة الصعبة الشروط.

وفى آخر الليل كنت أسمع صوت رجل يناهار باكيًا مثل طفل صغير فقد حضن أمه.. شعرت بالخوف من هذه الحالات التى أصبحت تتكرر كل ليلة.

وشكوت الأمر لموظف الاستقبال.. صارحته بخوفى من هذه الظاهرة الليلية الغريبة.. ضحك.. وطمأننى قائلاً أن جارى العجوز رجل وقور طيب.. بل أنه شديد الدماثة والخلق.. لكن وحيد ومنسى. لذلك يتحدث مع نفسه.. مستحضرًا أسرته وأهله فى ذاكرته، يعيش معهم لحظات يحاورهم، ويناقشهم وقد يتشاجر مع واحد منهم بعض الأحيان ثم يبكى قدره ووحدته آخر الليل.. فهو يخاف عزلته. ويخاف الموت القادم إليه بلا موعد وعرفت من الشاب التونسى أن جارى العجوز قد تجاوز السبعين من عمره يعيش فى هذا الفندق المتواضع منذ سنوات بعد أن تركه أبناءه

وزوجته وحيدًا وبعد أن أعطاهم عصارة عمره وشبابه ولم يحصد فى النهاية إلا «الموت عزلة» فى غرفة حقيرة فى فندق رخيص الثمن وبدلاً من أن يحيا فى إحدى مصحات العجائز.. يجد مع أقرانه ذكريات الأمس ويعامل كرقم هامشى فى السجلات الرسمية.

تذكرت عالمنا الأسروى الذى يشع بلغة التواصل والمحبة حتى نهاية العمر. كم كانت جدتى العجوز.. مدللة وأثيرة لدى الجميع لا يستطيع أحد منا أن يعترض على طلب واحد من طلباتها الكثيرة وأوامرها الصارمة. كما كنا نحبها ونحترمها.. فهى جزء من ذاكرة الطفولة البعيدة.. من حكاياتها المسائية، التى كانت تحملنا إلى عالم غامض ومثير ملئ بالمغامرات والفروسية والحب. تفتح لنا بوابات ألف ليلة.. ثم تغلقها فى نهاية الحكاية مع كلماتها «توتة توتة خلصت الحدوتة» لنذهب إلى أسرتنا ونحلم بقصور ملكية.. وفارس شجاع يأتى على حصان أبيض يخطفنا من بين أسوار الجن وقدراتهم الفائقة إلى عالم ساحر ورائع..

أتنهد بألم وأنا أستعيد فى وحدتى ذكرياتى الصغيرة القابعة فى أركان الذاكرة.. وأسأل نفسى.. أين أنا الآن!! أين مدينتى ورفاقى وأهلى.. أين الجلسات الحميمة مع فنجان القهوة.. وثرثرة الصديقات عن آخر الأنباء والحكايات. نختمها بقراءة طالعنا من خطوط البن.. نحلم بمستقبل أحلى. كما هو الفرق بين حالتى وحالة جارى العجوز. أنا القادمة إلى باريس أحمل فى داخلى كل

الانتماءات إلى الأرض والوطن وإلى بيوت بلدى الصغيرة المتكئة على شاطئ البحر.

هذه الانتماءات التى تهز أعماقى، وتفجر الحنين شوقًا ودموعًا. كلما حاصرنى الصقيع والاغتراب.

كيف لى أن أكشف أن باريس هى مدينة النور والفن.. وأنا فى غرفتى أسيرة لعتمة المكان الخانقة. أنظر من خلال النافذة العالية فلا تطالعنى إلا سماء رمادية تحمل لى شعور الضجر والاكتئاب. كم أفتقد لون الشمس التى تركتها فى بلدى ترمى كسلها التاريخى على الشواطئ والغابات والصحارى.

مع الأيام ألفت حوار الرجل العجوز.. صار تسليتى الوحيدة. حتى أننى كنت ألصق أذنى على الحائط الخشبى لأسمع بفضول لغته المجنونة دون أن أفهم حرفًا منها لأننى لم أكن قد تعلمت الفرنسية بعد. ولكن لأسلى سهرتى المملولة.

هذا الإنسان البائس الذى علمنى لغة الحوار مع النفس أحادثها وأعاتبها.. وأتحدث معها بصوت عال يصل إلى حد الشجار.. خاصة عندما أتخبط وحيدة فى شرايين المدينة العتيقة فى الحى اللاتينى «وجزيرة ستّى».. وعندما تحاصرنى جدران غرفتى الباردة.. أو أتمشى تحت لسعات البرد القارصة على جسر نهر السين وأفكارى تتخبط فى رأسى كأمواج البحر.

إنها بداية السفر، وبداية الغربة لامرأة عربية أرادت أن تشق طريقها فى عالم الغربة ولا تملك من سلاح سوى الإرادة والطموح.

اختارت باريس لأنها مدينة ذات عوالم غنية بالفن والفكر والثقافة وعمق التجربة الإنسانية فى استقلاليتها وخصوصيتها هذه التجربة رغم قساوتها إلا أنها وضعت البصمة الأولى لتجربة التعايش الحقيقى بين الإنسان وذاته، بعيدًا عن وصاية المجتمع والأهل. عن مجاملات يومية تجبرنا على ارتداء الأقنعة من لحظات الولادة حتى الموت.

مغامرة البحث عن مأوى

فى الحى اللاتينى، والمساء بارد مثقل بالمطر، أتسكع فوق الأرصفة الخالية من الناس أتفرج بلا مبالاة على الڤاترينات التى تعرض أجمل الملابس. دون أن يكون لدىّ أى رغبة أو أمل لاشراء. فالفلوس التى أملكها «محدودة» وللمصاريف أولويات وتصنيفات خاصة تضع لكل شئ أهميته وأولويته فى الاعتبار. خاصة وأننى بلا عمل.. مجرد طالبة فى السوربون (قسم اللغة الفرنسية) أدفع أقساط الجامعة الباهظة لا تجاوز أهم المصاعب التى تواجهنى فى باريس وهى مشكلة جهلى الفرنسية.

منذ الصباح الباكر.. وأنا أبحث عن استديو متواضع أستقر به.. أكره العودة إلى الفندق وإلى الغرفة الصغيرة التى تشعرنى بضآلة الأشياء من حولى.. أتحول فيها إلى قطة محاصرة بجدران باردة.

تشتهى أن تمدد بكسل تحت أشعة شمس حارة تعيد بدنها لمسة الدفء المفقودة.

كل ماحولاتى للبحث عن مسكن استقر به، كانت تقودنى إلى الفشل والإحباط، الموظف العربى فى الفندق عاملنى بصداقة وأخوة عربية، كان يقرأ لى يوميًا عناوين المساكن والاستديوهات التى يعلن أنها برسم الإيجار فى حيفة الفيجارو والليبراسيون ويؤشر بقلمه الأحمر أمام المناسب منها ومع كل صباح كنت أمضى إلى إحدى هه العناوين.. أقف فى طابور طويل من المنتظرين.. وجوه تختلف سحنتها وألوانها وتشير إلى جنسيات مختلفة اليابانى والإفريقى والأميركى. توحدهم مشكلة واحدة هى البحث عن المأوى.

أنتظر دورى بفارغ الصبر، يطل وجه السمسار أووكيل العمارة أو كما يسمونها (الكورنسّيبرج) (أى بواب العمارة) يمنحنا تأشيرة دخول إلى العالم السحرى المنتظر.. نتفرج على غرفة حقيرة لا تصلح للسكن، أو حتى لتكون مستودعًا للأشياء المهملة. لكن مع ذلك أعيش وهمًا زائفًا فى أن يكون هذا السقف هونهاية المطاف. مهما تكن ظروفه السيئة. فأنا أحلم فى أن يكون لى بيتى الخاص كى أطبخ ما ننسيت طعمه ومذاقه من أكلات شرقية لذيذة.. أو أرتب أوراقى وكتبى المبعثرة فى كل مكان.

أدون على الاستمارة الخاصة بالسكن المعلومات المطلوبة مستعينة بجواز السفر وأوراق الإقامة، وكل ما أملك من وثائق وأدلة

ومعلومات عامة وشخصية قد لا أبوح بها لأقرب الناس وأترك رقم هاتفى وعنوانى.. وأنتظر أن يأتى الفرج وتتصل بى إحدى الجهات العديدة التى زرتها ودونت فيها كل هذه المعلومات والأسرار الشخصية.

هذا الموعد الذى يعطيه السمسار غالبًا ما يكون كذبة مجاملة حفظها غيبًا حتى يثنى المبعدين وهم غالبًا (غير مرغوب بهم) أو القائمة السوداء.. ويقع من ضمنها العرب العاطلين عن العمل وأرباب السوابق ثم الزنوج والغرباء الملونين. فنحن نعتبر (كعرب) (شر البلية) وكما يضعنا (جان مارى لوبن) زعيم الجبهة الوطنية الفرنسنية والذى يعتبر من كبار العنصريين الذين ينادون بطرد العرب من فرنسا «بأننا متخلفين جاهلين و.. و.. و.

مع ذلك لم أيأس.. كنت أمضى مع كل صباح.. وأنتظر فى الطابور تحت لسع البرد والمطر ووابل الثلج بعض الأحيان. أكتب الأوراق وأملأ الاستمارات وأحلم بيوم موعود، يأتى فيه ردًا ما من بين عشرات المساكن المتناثرة فى عناوينها بين مناطق شعبية أو بائسة أومناطق راقية فخمة.. مساكن لا تصلح لإيواء حيوانات ضالة من ردأتها ولكنى مع ذلك تظل بالنسبة لنا مطلبًا ملحًا للأمان والاستقرار.

وعندما كان يستبد بى الجوع. أسرع إلى أقرب مطعم لبيع السانندويتش أو «الهامبرغر» وأشرى أصغر السندويتشات وأرخصها حتى أملأ معدتى الجائعة ولم يكن أمامى من خيار

بالتغيير لهذا النمط المعيشى المعتاد إلا بما أشتريه من بعض المخازن اللبنانية التى كانت تبيع (اللبنة والجبن الأبيض والزيتون والبسطرمة) أو سندوتش فلافل وشاورما تحقق لى بعض التوازن النفسى والسيكولوچى من اغتراب النفس والجسد.

تمنيت يومًا أن أدخل إلى مطعم ما.. أجلس مثل عباد الله أطلب ما أريد وآكل بشهية افتقدتها منذ رحيلى عن الوطن، الذى تركت فيه طاولات الأهل العامرة بأشهى المأكولات وأطيبها مذاقًا.

قررت ذات يوم أن أخوض هذه المغامرة مهما كانت نتائجها.. ربما من أجل التجديد ورغبة فى التحدى.

أغرتنى وجهات المطاعم اليونانية المنتشرة فى أزقة الحى اللاتينى والتى تعرض فيها أصناف شهية شبيهة بالأصناف المعروفة فى بلدى. كالكباب المتبل وورق العنب المحشى، وغيرها.

دخلت إحدى هذه المطاعم.. وكانت تعزف فيها أوركسترا صغيرة لعدد من الشبان اليونانيين.. تذكرت من خلال الألحان الجميلة التى سمعتها فى هذا المطعم رحلة بحرية إلى أثينا قمت بها ذات يوم مع صديقات الجامعة.

كنت أريد أن أعيش حلاوة اللحظة.. وفرحة الانعتاق من حياة يومية تعبة ومملة أجرى فيها لاهثة بين الجامعة والمترو بحثًا عن سكن وأوراق إقامة.. يلاحقنى شعور بالتشرد كلما تمشيت على أرصفة باريس أتأمل.. وأحزن وأفكر فى يومى.. ومستقبلى جلست على أحد الطاولات الخشبية بعد أن قادنى إليها الجرسون بترحيب

عكس آداب الضيافة وحسن المعاملة.. كان يحيطنى ديكور غريب، تناثرت حزم البصل المجفف والثوم على الجدران وأطباق القش.. هنا وهناك تماثيل من الجصّ الأبيض لآلهة من اليونان. موسيقى البوزوكى، تلك الآلة اليونانية التى تلون أجواء المطعم بعبق الشرق الساحر وحرارة الشمس اليونانية الممتدة على مدى الجزر والمدن القديمة تصورت من حدة جوعى أننى قد ألتهم كل ما فى المطعم.. كنت كالصائمة التى تعد نفسها لإفطار شهى.. وكما كانت تقول أمى «أن عين الإنسان فارغة» أحضر النادل ما طلبت بدءًا من المقليات إلى المشويات ثم تذوقت الحلويات اليونانية الشهيرة ولكن ما أن أكلت بضع لقيمات حتى شعرت بالشبع.. ورأيت أن الأطباق لا زالت حافلة بالطعام وكان فى الممكن تكون لى أكثر من وجبة بدلاً من أن أطلبها مرة واحدة بمنتهى الإسراف والجشع مع ذلك حاولت أن أتجاهل ضيقى.. وأن أنسى فى هذا اليوم، كل ما له علاقة بالتقشف وتقنين المصاريف وغيرها فأنا اليوم أقيم احتفالاً خاصًا ضد السندوتش والهامبورغر وكل أشكال المآكل السريعة أو ما يسمونها (الفاست فود).

جاء النادل ومعه ورقة الحساب.. وأنا أرتشف قهوتى على مهل وبكل ثقة وراحة نفسية. وما أن قرأت الرقم المطلوب حتى صعقت. وبدأ العد التنازلى لمفهوم الفرح والثقة والاحتفال.. وكأنني عشت بضع لحظات حالة وهم أو حلم ليس أكثر.

خرجت من المطعم وأنا أحسب على أصابعى.. كم بقى لى من مصروف الأسبوع المقرر تذكرت أمى وأمثالها الشعبية عندما كانت

تردد «راحت السكرة وأجتْ الفكرة» ومنذ ذلك اليــوم التــاريخى قررت أن لا أخوض مثل هذه المغامرة الطائشة طالما أنا بلا عمل ولا مسكن.. وفلوسى على قد حالى.

قررت بينى وبين نفسى أن أظل على وفائى للوجبات السريعة الرخيصة: صرت من رواد مطاعم (الفاست فود) «ماكلدونالد».. «الهبرغركنغ»، «فرى تايم» وإذا أردت أن ألون طعامى بالتغيير فلا بأس من سندوتش شاورما بالفلفل الحار والبصل من سناك تونسى أو سندوتش فلافل من مطعم لبنانى.

هذه الوجبات التى تناسب إمكانياتى المادية، وتريح فكرى من عملية الحسابات الدقيقة والمعقدة والتى أننا فى غنى عنها لأتفرغ لمسألة أهم.. أو لمسائل هم. المسكن. اللغة. الإقامة.. العمل. و. و. إلخ.

وكم هى الحياة مريرة.. عندما تلاحقنا الإحباطات وتضعنا على قاب قوسين من اليأس والفشل.

غرباء فى الليل

فى الحى اللاتينى، وفى مقهى «كلونى» الذى يقع عند تقاطع شارع «السان ميشيل» و«سان چيرمان» هذا الحى الذى توجد فيه السوربون أعرق الجامعات الفرنسية البانثيون (مقبرة العظماء) وحديقة «اللوكسمبورج» والمقاهى الرصيفية العتيقة التى شهدت مقاعدها مناقشات وإبداعات وأهم الفنانين والأدباء العرب والفرنسيين «جان پول سارتر» و«سيمون دو بوفوار»، و«هيمنجواى»، «توفيق الحكيم»، «طه حسين» و«عبد الرحمن البدوى» وغيرهم.. هذا الحى الذى أوحى بأعمال أدبية وإبداعية هامة تركت أثرها فى الأدب العربى والغربى.

ومقهى «كلونى» يعتبر مقرًا للكتاب والصحفيين العرب، تجدهم فى طابقه الأول يتناقشون أو يتأملون العابرات الجميلات بينما فى

الطابق الثانى يكتبون أو يقرأون بهدوء. وكأن هذا المقهى تحول بفعل الممارسات اليومية إلى شبه مكتبة يحرم فيها اللغو بصوت عال خوفًا من إزعاج الآخرين. حتى الجارسون الذى يقدم طلبات الزبائن تراه يتجول بين الطاولات بخطوات هادئة كأنه يخاف أن يجرح الصمت المخيم أو يقطع سلسلة أفكار مؤلف استغرق فى صب إبداعاته على الورق.

أجلس على طاولة رصيفية،أتأمل أشجار الشارع العارية.. بينما الشمس الدافئة بخيلة تتسحب خلف الغيوم تارة وتارة تتمحنا إشراقة سريعة نترقبها بلهفة مشوقة.. يوقظنى يسترخى من شرودى فنان متجول عجوز يعزف على آلة الأوكورديون بضع ألحان فرنسنية قديمة. يزاحمه مهرج صبغ وجهه بالألوان. ولبس ملابس غريبة. يحاول إضحاك الجالسين بما ينقله من حركات إيحائية مضحكة مقابل بضع فرنكات يرميها العابرون والمتفرجون فى قبضته السوداء الغريبة الشكل. متسولة تبحث عن رزقها بطريقتها.. عالم غريب ملىء بالمتناقضات والأجناس أشعر، وكأنى فى مسرح متجول.. بلا نص ولا برنامج. ولا خشبة أو ديكور.

المثلون هنا وهناك.. يستدرجوننا للفرجة دون ثمن أو إعلان. ويضعوننا أحيانًا داخل اللعبة، لنتحول أحيانًا إلى مهرجين أو متفرجين لا فرق..

وأنا أعشق هذه المنطقة.. أتأمل مظاهر الحياة فيها، تلك التى تتجدد يوميًا لتمنحان مزيدًا من الدهشة والانبهار بعالمها

المتناقض.. أتفرج على رسام كاريكاتورى فرد أدواته على الأرض وراح يرسم وجه سائحة جميلة. يحولها إلى شكل منفر مضحك لا يمت إلى صاحبته بأية صلة.. نضحك جميعًا حتى صاحبة الصورة تشاركنا الضحك وهى تدفع راضية صاغرة للرسام مئة فرنك تتأبط صورتها فخورة.. بينما أضرب كفًا بكف على غرائب الطبيعة البشرية وأحوال الناس الغريبة.

فى المقهى المجاور «لكلونى»، يعزف فنان صينى على البيانو مقطوعات قديمة.. ويغنى بعض الأحيان أغانى عاطفية «لفرانك سيناترا» و«چين كيلى» و«جاك بريل» و«چورج براسانس» شدتنى ألحانه العذبة الرقيقة، فوجدت نفسى أدخل المقهى وأجلس عند أقرب الطاولات إليه أسمعه بانبهار وكأنى ارتشف ألحانه وكلماته التى تحملنى عبر أجواء من الخيال والجمال والكلمة المعبرة.

أحسست وكأن هذا الرجل الصينى الغريب قد مسح عن رأسى المعبئ ببقايا حزن واجهاد حملتها معى كقدرى. غنى (غرباء فى الليل) وكأنما يعبر عن جراحات مشتركة بينى وبينه.. هو الصينى الآتى من أقاصى الدنيا وأنا المرأة الشرقية التى تركت دفء الأسرة.. وحضن الوطن، لتعيش اغترابها وكأنما تختار منفاها وعذاباته. بينما تحسدنى الصديقات فى رسائلهن المليئة بالشكوى والعتاب وأحيانًا بقصص البلد وأهل البلد.. تلك الرسائل التى تعيد لروح إلىّ.. وتشعرنى وكأنى أجتاز المسافات فى خطوة واحدة.. لألتقى معهن.. نتحاور.. ونتعايش بمرح وعفوية كما كنا فى

السابق.. كلهن يسألنى عن أحوالى فى باريس يتصورون عالمى مليئًا بالمغريات والحب والحرية اللامحدودة.. وأنا أتهربّ فى الرد عن رواية متاعبى الخاصة مع اللغة والعمل والبحث عن مسكن وإقامة. عن حريتى المقيدة بالمعاناة والقلق المبهم.. هل أقول لهن أن المشوار صعب وطويل.. وإن أمامى العديد من العقبات حتى أصل إلى شاطئ الأمان. ولكن رغم كل هذه الظروف لا زلت أشعر بأن ثمة أمل يدفعنى إلى الصمود فى مواجهة كل ما يعترضنى من مشاكل قد أقف أمامها عاجزة، ومترددة.. خاصة وأننى لازلت حديثة التجربة فى مسألة الغربة، وفى بلد كبير لا أعرف عنه الكثير فألغازه وغموضه أكبر من حجم تجربتى ومعرفتى المتواضعة بالحياة.

وعندما أجلس اليوم فى شقتى الأنيقة فى ضواحى باريس، فى منطقة هادئة تشعرنى وكأنى أعيش فى حديقة لا تغادرها العصافير.

فى هذا الهدوء الناعم استرخى فى دائرته بعد سنوات من إقامتى فى باريس، يعترينى شعور المحارب الذى يتذكر أيام غزواته وكفاحه فيبتسم، وشعور البحار الذى لم تهزمه عواصف البحر وأنواءه بقدر ما زادته تعلقًا وحبًا للبحر ومخاطره.

وأنا التى عرفت الصبر والكفاح في شوارع باريس وازقتها .. أشعر بأننى عاشقة لها رغم صعوبتها كمدينة مادية استهلاكية.. أتعامل معها كسائحة وأنا أتجول بين منطقة «شانليه» ومركز «چورچ

بومبيدو» و«الحى اللايتنى» و«مونبارناس» أتابع فرح أعيادها وحكايتها اليومية المثيرة لأكتب عنها، أو لأستقى تجارب ومعلومات غنية.. ومفيدة.. تلك باريس الساحرة الغامضة التى علمتنى أسرار الحياة. وفن التعامل مع الذات ومع الآخرين باحساس الثقة.. وإحساس الحرية فى اختيار ما أرغب وما أحب.. هى التى علمتنى كيف أحرق أقنعة المجاملات والزيف لأظهر ملامح وجهى الحقيقى.. وملامحى العربية الصحيحة التى أفخر بها وأعتز.

وداع الرجل العجوز
وجيرانى الطليان الجدد

مثل عصفور يرتاح فى عشه الآمن بعد طول ترحال. حملت حقائبى العديدة، ومضيت إلى الاستديو الصغير الذى وجدته أخيرًا عن طريق طالب عربى من بلد شقيق كان قد أنهى دراسته العليا وأراد العودة إلى الوطن. ارتحت أخيرًا من جو الفنادق الذى يذكرنى بأنى على موعد دائم مع السفر والتشرد، وحياة لا توحى بأى أمان أو خصوصية. خاصة وأن رائحة غرفتى الرطبة فى الفندق العتيق والذى عشت فيه قرابة شهرين أو أكثر لا زالت عالقة فى أنفنى ومسامات جلدى.

قبل رحيلى إلى عالم الاستقرار فى بتى الصغير المتوارى فى زقاق صغير فى الحى السابع عشر فى باريس، كنت قد عشت

مأساة وداع جارى العجوز الذى ألفته وأحببته دون أن أعرف شكله أو ملامح وجهه.

ذات صباح وأنا مستغرقة فى نومى العميق.. سمعت ضجيج سيارة الإسعاف يمزق صمت الشارع الهادى، وأحسست بحركة غير طبيعية فى الفندق، انتقلت إلى طابقى وإلى الممر الذى تقع فيه غرفتى.

مددت رأسى من بين دفة الباب بفضول لا أعرف ماذا حدث فى هذه الساعة المتأخرة من الليل.. وجدت مجموعة من الرجال ومعهم أفراد من رجال البوليس، ينقلون جارى العجوز على نقالة صحية، وكان يبدو انه فى حالة إغماء ميؤوس منها.

تألمت لحالة هذا الرجل الذى لم يجد حوله أى فرد من أسرته فى لحظات حياته الأخيرة رغم كل ما بذل وقدم من عطاء للآخرين تمنيت أن أشاركه بعض وحدته هذه أن أعيده إلى حالة إنسانية افتقدها فى سنوات عمره الأخيرة، ولكن كيف لى أن أحاوره وأنا لا أتقن لغته، ولا أحفظ إلا بضع كلمات فرنسية تعلمتها فى السوربون فى دورة اللغة التى التحقت بها، مع ذلك طلبت من موظف الاستقبال التونسى عنوان المستشفى الذى نقل إليه العجوز.. ومع أنه استغرب من طلبى هذا إلا أنه لم يتردد فى إعطائى العنوان دون أى استفسار فضولى منه.

ركبت المترو وانطلقت وفى يدى باقة من أزهار رخيصة اشتريتها بعشرة فرنكات من بائع متجول فى محطة المترو. كان المستشفى

يقع فى إحدى الضواحى الباريسية البعيدة وكان علىّ أن أستقل ترام ينطلق من محطة (سان لازار) ومع ترددى وقلقى إلا أننى حزمت الأمر.. كان على أن أودع جارى العجوز، فى لحظاته الأخيرة باحساس من يودع قريبًا أو صديقًا يعرفه وتربطه به صلة ما، جالت فى رأسى أسئلة كثيرة.. كيف أتصرف إذا ما وجدت أحد أقربائه هناك!! وكيف سيكون موقف العجوز حيالى وهو الذى لم يرانى أو استرع انتباهه. لأنه غالبًا ما كان يمضى إلى غرفته شاردًا مطأطأ الرأس. وكأنما لا يعنيه أحدًا فى العالم.

دخلت غرفته التى كان يوجد فيه سرير آخر خالٍ وكأنما غادره صاحبه إلى العالم الآخر تدل على هذا حزمة أزهارٍ ذابلة وضعت بجانب السرير.. تشاءمت من هذا الخاطر.

واقتربت من سرير العجوز الذى كان يبدو فى حالة إعياء، تندر بنهايته القريبة. فتح الرجل عيناه المتعبتان.. رأيت فيهما مُلامح دهشة وتساؤل.. ربما قال لنفسه.. من هى تلك المرأة الغريبة الملامح التى جاءت تقتحم آخر لحظات غربته وعزلته قبل النهاية؟

أمسكت بيده المتخضنة الباردة بحنّو.. ثم وضعت باقة الوردود فى الآنية الفارغة القريبة من سريره.. رأيت نظرة مضيئة فى عينيه.. ومضت فيها روح الحياة.. ونبض الدهشة.

لقد ترك جارى العجوز غرفته الصغيرة خالية من حواره اليومى الأليف.. من أشياءه الصغيرة، التى هى جزء من ذكرياته.. وحكايات عمره المتناثرة على مدى السنوات الطويلة.. وللتو نظفت

الغرفة، وهيأت لاستقبال ضيف جديد.. بعد أيام بدأت الحركة تدب فى الغرفة المجاورة، صخب.. وموسيقى عنيفة.. ضحكات مجنونة وتأوهات عاشقين فى آخر الليل.. كانت تطرد من عينى النعاس وتجعلنى أعيش مع لحظات جنونهم اليومى الساخن وعرفت من التونسى (موظف الاستقبال) أن شابًا وفتاة من الطلبة الطليان استأجرا الغرفة لبعض الوقت.. قلت لنفسى (لن ينقضى إلا الطليان وحرارتهم الغير معتدلة!! والتى جعلتنى كل ليلة اضطر إلى الجلوس فى المقهى أسفل الفندق أكتب وظائفى وأحضر دروسى ريثما يتبدد صخب العاشقين وثرثرتهم وموسيقى البوب والروك وضحكاتهم المجنونة الصاخبة الذى كان يحول الفندق من جنة للحلم إلى مستودع للمجانين وكما يقول المثل الشعبى: (نوم الظالمين عبادة) فإن نومهما كان يمثل لى ساعة النهار والراحة نظرًا لصعوبة الحياة اليومية التى أعيشها واستيقاظى المبكر من أجل دوام الجامعة الذى يبدأ فى الثامنة صباحًا.

لذلك جاء زميلى إلى الاستوديو المتواضع الذى وجدته، فرصة مناسبة لأرتاح من مفاجأت يحملها لى زوار الفندق المجهولين ولكل واحد منهم حياته وأسلوبه وخصوصيته. فليس من السهل على امرأة وحيدة تحمل فى أعماقها تقاليد الشرق وتربيته أن تعيش جنبًا إلى جنب مع جنسية مطلقة يمارسها الأوروبيون بكل بساطة وحرية فى الشارع والمترو وعلى مقاعد الحدائق العامة.. فكيف إذا كان جنون العشاق الطليان - جيرانى - يفصل بينى وبينهم حائط خشبى لا يخفى أدق التفاصيل..

بيتى الجديد..
وأول خطوات الاستقرار فى باريس

فى طابق أرضى أشبه بمستودع أو كراج مهجور.. كانت غرفتى المتواضعة أو ما يسمونه فى باريس بالـ (ستوديو) غرفة كبيرة ذات أثاث عتيق يشعرك من النظرة الأولى إليه أنه تناوب على هذه الغرفة عشرات المستأجرين قبلى.

كنبة عتيقة تفتح لتحول إلى سرير، مطبخ لا يسع جسدى، فيه ثلاجة متهالكة وصغيرة لاتكاد تسع إلا بضع حاجات لا تلبى طلب فرد مثلى، وغاز يعمل على الكهرباء.. يستغرق تسخين فنجان القهوة ساعة على الأقل، وإن سخن بعض الوقت فإنه يكاد يشعل البيت بحرارته العالية.. التى تستمر لفترة طويلة..

ويبدو أن بينى وبين النوافذ فى باريس عداوة تقليدية، فقد وجدت نفسى فى غرفة ليست لها أية نافذة على العالم الخارجى.. بل شبه نافذة تطل على (المنور) وهو مدخل البنانية حوّل إلى مستودع للأشياء العتيقة التى يملكها صاحب البناية.

لذلك شعرت وكأننى اخترت لسكنى زنزانة أكثر اتساعًا من غرفتى السبقة رطبة.. معتمة لا أُعرف فيها شكل الليل من النهار إن لم أخرج إلى الشارع.. حتى أن صديقة جزائرية كنت قد تعرفت عليها فى المترو.. ولاحظت أننى عربية من المجلة التى كنت أقرأها.. ارتبطنا بعدها بصداقة وأخوة كان سببها الرئيسى إحساس العربى بروابط العرق والدم التى تربطه بأخيه العربى دون حدود أو ظروف خارجة عن إرادته وطبيعته، هذه الصديقة كانت تتصل بى هاتفيًا كل صباح لتمدنن بأخبار النشرة الجوية قبل أن أخرج إلى الجامعة.. فأنا لم أكن قد امتلكت جهاز التليفزيون ولا أفهم لغة الإذاعات الفرنسية المتعددة لذلك كنت أتحسب للخروج بمظلة إذا كان الجو ماطرًا أو بدونها إذا طلعت على باريس شمس الشموسة وأكثر من الملابس إذا نزلت درجة الحرارة أو أخففها حسب مقتضيات تقلبات الطقس الباريسى ومزاجه الثقيل.

ومن هذا المسكن البائس تعمقت صلتى بالجدران الصماء وصار بيننا ألفة وديعة اعتدتها يومًا بعد يوم. حاولت أن أحول هذا الاستديو إلى عش صغير وجميل بلمسات شامية، فزينت طاولته الخشبية المهترأة بمفرش أغبانى مطرز بخيوط الذهب وبلوحات

مطعمـة بالصـدف وبعلب الموازييك الجميلة التى حملتهـا معى من دمشق.. وضـعت بعض الزهور البـرى التى قطفـتها من شـجرة فى الشارع وأنا أتلفت حولـى تحسبًا وخوفًا من أن يقفشنى أحد ما وأنا أتعدى على حرمة الزهور والأشجار التى تتحول إلى خمائل جميلة فى فصل الربيع. وبالفعل عندما زار الاستديو صاحب البيت صعق وتأوه قـائلاً بالفـرنسـيـة ـ أوه لا لا.. مـا هذا.. لا أصـدق مـا أرى بعينى... وتابع قائلاً.. فعلاً.. أنت سيدة نظيفة وأنيقة وأنا فخور بك وهذه (الأوه لا لا) جعلته ما أن يشم رائحة طبخى اللذيذ يصل إلى خياشـيمه حتى يفتعل أى مناسبـة ويدق بابى ليقول لى.. من المؤكد أنك تصنعين مـآكل شـرقـيـة لذيذة. وطبعًا لابد أن يتذوق صحنًا يحمله معه إلى بيته ويعود به فارغًا فى اليوم الثانى.. فـأنا لم أنس عشقى لمأكل بلدى.. ومن مطبخى الصغير حققت بنفسى بعض الأطبـاق الشـهـيـة التى وفـرت على التـردد على مـحـلات الهامبرغر، وأراحتنى من الأزمات المعوية التى كانت تهاجمنى فى الليالى البـاردة، من نـوعـيـة الطعـام ومن البـرد القـارص الذى لم أتعوده.

وقد كان الأهل يتذكروننى ببعض الأطعمة الخاصة يرسلونها مع أحد المسافرين أو أحد أفراد طاقم الطائرة السورية.. ويكون لى عيد حقيقى،أعيشه مع صديقات الجامعة العربيات.. حيث نتحلق حول صحون الكبة، واللحم بالعجين، والزعتر والحلويات السورية ولا نتركها إلا فارغة تشكو من شراهتنا الطارئة، وكنا نختم السهرة العامرة بتسكع فى الحى اللاتيين مع موسيقا وغناء العازف الصينى

الذى ألف حضورى اليومى.. فصار يغنى لى خصيصًا.. (غرباء فى الليل) وهو يحيينى تحيته الرقيقة.. ليشعرنى بأن العالم صغير.. وإن الإنسان لابد أن يلامس فى الإنسان الآخر.. جانبًا ما.. لمسة إنسانية.. هى لمسة التواصل الإنسانى. مهما بعدت المسافات بين الواحد والآخر.

من مهنة الصحافة
إلى مهنة البيبى سيتر أو حاضنة الأطفال

بعد استقرارى فى مسكنى الجديد الذى حولته إلى بيت ناعم وأنيق بفضل بعض ما أضفت إليه من لمسات شرقية وديكورات، كالمكتبة التى اشتريتها بسعر بخس، وآنية الزهور وأصص المزروعات التى وضعتها فى جوانب الاستديو لتغطى شقوق الجدران وخرابيش السكان السابقين، سجادة صغيرة شرقية وضعتها على الأرض لتخفى بقع الزيت والطعام المتناثرة عل يالموكيت، وسائد من البروكار كنت قد جلبتها معى من سوق* (الحميدية) علّ وعسى تفيدنى فى تقديم هدية مناسبة فى ظرف ما. وها هى تنفع اليوم فى إضفاء التجديد على المقعد الذى بلىَ غطائه من كثرة استعماله.

بعد هذه المرحلة من الإعداد الأولى للاستقرار الحياتى بدأت أستعد جديًا لدراسة اللغة الفرنسية، بعدما انشغلت فى الدورة الأولى لدروس السوربون بأمور الإقامة والمعيشة والسكن وغيرها. ومن هذا المنطلق بدأت أدرس ليل نهار فى سبيل تعويض ما فاتنى ولتحقيق نتيجة أسرع خاصة وأن دورات اللغة مكلفة للغاية وأخشى أن لا تتبدد الفلوس القليلة دون أية نتيجة تذكر.. لقد كانت اللغة الفرنسية صعبة خاصة فى إملائها وقواعدها حتى أن علاماتى فى المرحلة الأولى كانت لاتتعدى خمسة درجات تحت الصفر لأنى كنت أكتب بالفرنسية كما أسمعها، خاصة وأنى تعلمت الإنكليزية منذ الصغر وتأسست فيها جيدًا بمدرسة الأميركان فى بلدى الصغير.. ,ولم يكن لى أى صلة أو المام باللغة الفرنسية.. وكنت أحقق المثل القائل «العلم فى الكبر كالنقش على الصخر»..

وبما أن صديقتى الجزائرية قد واظبت على الاتصال بى يوميًا لتمدنى بالنشرة الجوية، حتى أستعد وأتحضر للخروج دون أن يصيبنى الزكام، أو أغرق فى وابل المطر. خاصة وأنى أحسب نفسى أعيش فى جحرٍ بائس، بعيد كل البعد عن العالم الخارجى عن الضوء والصوت، ولمسة الشمس التى صارت بالنسبة لى مطلبًا صعبًا فى مدينة ضبابية أكثر أيام السنة.

ومن الطرائف التى حصلت معى أثنان سكنى فى هذا الاستديو، أننى استغرقت فى نوم تعب بعد الظهر ولم أستيقظ إلا فى السابعة والنصف مساء. لبست ثيابى بسرعة وتهيأت لألحق

بدرس الجامعة، متصورة أن الوقت صباحًا وليس مساءً. إلا أن صوت الصديقة الجزائرية جاء عبر الهاتف، لينقذنى من ورطتى هذه فقد دعتنى إلى تناول القهوة فى منطقة «شاتليه»، قلت لها بعجالة.. عندى الآن درس وأخشى أن أتأخر لذلك اجلّى مشروعك حتى المساء. ضحكت الصديقة وقالت لى: مسكينة يا عزيزتى لم يعد باستطاعتك أن تميزى الليل من النهار وأنت فى هذا الاستديو (السجن) غيريه يا عزيزتى قبل أن تصابى بالجنون.. ابتسمت من حماقة صديقتى. فهى لا تعرف حجم معاناتى حتى حصلت على هذا الاستديو الذى تسميه (سجنًا) قلت لنفسى (يا ما أحلى السجن)، ولا عذابات الفندق التعس وأحواله الرديئة. فأنا منه لابد سأصير فى مستشفى المجانين خاصة مع أحوال جيرانى الطليان الطائشين.

لاأنسى يوم وطأت قدمى ساحة جامعة السوربونن العتيقة فى الحى اللاتينى.. رفرف قلبى كعصفور صغير يعايش لذة الطيران لأول مرة تأملت الجدران الفخمة، التماثيل الرخامية، الأروقة والمكتبات.. أحسست كأنى فى حلم رائع.. أتأبط أوراقى وكراريسى كأى طالبة جامعية مبتدئة فى أولى خطواتها نحو بوابة العلم والتجربة الحقيقية.. حنين جارف شديد إلى ذكريات جامعة دمشق، واغترابى الأول فى الحياة، وأنا أغادر بلدى الصغير مشفوعة بدعاء أمى وتوصيات أخوتى. يعترينى شعور الخوف وإحساس المسؤولية.. مع شعور خفى بحرية تثقل على قلبى بقدر ما تسعدنى. فهى تجعلنى إنسانة تمتلك مفاتيح الحياة بكل

اختياراتها، وبمجابهة كل الظروف بصعوباتها ومتاعبها وكأنى طفلة خرجت من رحم أمى، مدينتى الصغيرة، أصرخ بصوت عالٍ، معلنة وجودى الجديد كإنسانة مستقلة وحرة.. يملؤنى إحساس الثقة بالنفس بطموح لا حدود له.. لك امتلأت حياتى بالنشاطات الجادة التحقت بكليتين جامعيتين (الحقوق ولافلسفة) وبدأت أحث عن العمل.. كنت أريد أن أثبت للأهل أننى (قدّها وقدود) وأننى أهم من (ستين راجل). امتلأ وقتى بالعمل.. اشتركت بمهرجانات الشعر والموسيقى والمسرح.. كانت هذه النشاطات نقاط مضيئة فى ذاكرتى كالزهور البرية التى تتفتح فى ضوء القمر وها أنا ذا أعود من جديد إلى الدراسة بعد أن انقطعت عنها بعد التخرج وتفرغت للعمل لسنوات أشعر وكأنن أعود الزمن إل الوراء.. إلى البراءة والأحلام والحب الأول..

سعادتى لم تكتمل.. فكل ما ادخرته مننقود بدأ يتناقص. خاصة بعد أن دفعت إيجار الاستديو لثلاثة أشهر مقدمًا. إضافة لقسط الجامعة والمصاريف اليومية. كان علىّ زن أبحث جديًا عن العمل. وإلا مت جوعًا على أرصفة باريس أو عدت خائبة إلى بلدى كما «يتوقع قريبى».

كل يوم أحمل أوراقى، مقالاتى الصحفية السابقة، وثائقى التى تثبت أنى عملت صحفية أ وكاتبة فى الإذاعة والتليفزيون والصحافة، بطاقات انتسابى إلى المؤسسات الصحفية العربية.. كلها أتركها هنا وهناك فى وكالات الأنباء العربية، فى المراكز

الثقافية، والمجلات المهاجرة، والجميع يكيل لى الوعود والابتسامات المجاملة.. ثم لا تلبث آمالى وانتظارى الطويل أن يتبدد على صخرة الواقع اليومى الصعب. ألا وهو (الكذب والمجاملات والزيف العربى) خاصة وأن الغربة أفرزت للأسف إنسانًا عربيًا مهجنًا لا يفهم ولا يتعامل إلا بلغة لامصالح، والمنافع.. حتى أن التكتلات والتجمعات الصحفية والإعلامية فى الخارج هى الأكثر تخريبًا من غيرها بحكم المنافسة وصراعات الأنظمة السياسية التى ينتمون إليها فهى تطرح إفرازاتها وسلبياتها بشكل مخيف فى مختلف علاقاتها وتوجهاتها.

فقدت أملى فى إيجاد العمل بهذه الطريقة.. وكان علىّ أن أبحث عن وسيلة أخرى للرزق، بعيدًا عن المهنة التى مارستها لزمن طويل وأعطيتها عصارة عمرى وجهدى..

مرة توقفت مع زميلة كندية أمام لوحة الإعلانات الطلابية التى يلصق عليها قصاصات الأوراق والتى تقدم للطلبة فرص عديدة للعمل أو للسكن أو لشراء حاجات مستعملة قد يحتاجونها بسعر زهيد للغاية.

قرأت فى هذه اللوحة عدة إعلانات للعمل، جعلتنى أضحك مندهشة من نوعيتها وأشعر بأنى أكاد أبكى على نفسى وحظى. لأن ليس من إعلان واحد يناسبنى.. ووجدت مثلاً.

«إعلان من رجل عجوز بحاجة لطالبة تؤنسه وتسليه فى وحدته وتقرأ له صحفه اليومية».

«إعلان من أسرة فرنسية بحاجة لفتاة جامعية جليسة لأطفالها أو ما يسمونها بالفرنسية (بيبى ستر) وهى غالبًا تدفع للطالبة أتعابها «بالساعة» لقاء غياب الأهل خارج المنزل.

«امرأة عجوز تبحث عن طالب أو طالبة تنزه كلبها المدلل (وهو من النوع البوليسى) وتشترط أن يتوفر فى طالب العمل أن يكون حنونًا وصبورًا لأن كلبها يبدو أنه مرعب وشرس ويتطلب صبر أيوب لاحتماله.

إعلان آخر من أسرة تطلب (فام دو ميناج) أى بمعنى (خادمة) بالساعة تكنس وتغسل وتمسح مقابل مبلغ محدد حسب القوانين الفرنسية.

صديقتى الكندية لم تتردد أن تدون فى مفكرتها أرقام الهواتف والعناوين وكأن لسان حالها يقول (وجدتها) على طريقة أرخميدس المعروف بينما وقفت حزينة وحائرة أمام هذه العروض السخية العجيبة ادرس خصائصى الذاتية، وإمكانياتى، فلا أجد نفسى صالحة لأى من هذه الأعمال كلها.

فأنا لا أحب مرافقة الكلاب.. بل عندى عقدة مزمنة منهم على أثر عضة لكلب شرس ذقتها فى طفولتى وعانيت منها الأمرين.

وأنا لا أعرف اللغة الفرنسية حتى أسلى الرجل العجوز أو أقرأ له صحفه ومجلاته فإنه بالكاد أفك الحرف وألفظ الفرنسية بلهجة ركيكة تدل للوهلة الأولى دلالة صريحة على أننى من الغرباء المستجدى فى هذا البلد.

ومن هذا المنطلق فـأنا أيضًا لا أنفع كى أكون جليسـة «أطفـال» لأنى لم أدرس طبـيعـة الطفـولة الفـرنسـيـة ولا طبـيـعـة مـزاجـهـا وتربيتها. حتى أن الطفل لو طلب منى كأس مـاء فأننى لاشك سوف أقف أمامه كالبلهاء، لا أعرف إن كان يريد ماء أو يريد شيئًا آخر.

وانتظرت أن يسعفنى الحظ فى إعلانات جديدة تقدر مواهبى وإمكاناتى الصحفية والفكرية.. ذات يوم جاءت الفرصة من أحد الأصدقاء وكنت قد تعرفت عليه فى بلدى وأعطانى رقم هاتفه فى باريس كى أطلبه فى أى خدمة أو مساعدة.. وعندما التقانى مرة فى أحد المقاهى وشكوت له ظروفى وسوء أحوالى، عرض علىّ أن أعمل كجليسة لأطفال أسرة عربية ميسورة، يسهرون غالبًا مع أصدقائهم فى خارج المنزل كونهم من طبقة رجال الأعمال المهمين..

ولم يكن أمامى أية فرصة للرفض نظرًا لحاجاتى الماسة للعمل والمال دخلت بيت هذه الأسرة خجلة مرتبكة.. ولكن ترحيب سيدة الدار وتعاملها معى باحترام وتقدير وثقة جعلنى أرتاح بعض الشئ.

سألتنى عن دراستى وبلدى.. وعن حياتى الجديدة فى باريس. ثم أعطتنى بعض الإرشادات التى تتعلق بأطفالها ودارها.. وسألتنى بكل عطف أن أتعش، وأن أتفرج على التليفزيون وأفعل ما يحلو لى وكأنى فى بيتى.

ومـا أن انصـرف الزوجـان إلى سـهـرتهمـا ..وبقـيت وحـيـدة فى صـالون المنزل الفـخم الـذى كـان يبـدو كـقـصـر من قـصـور باريس العـريقـة حتى أحـسـست بخوف مـبـهم. صـمت غـامض يطـبق على

المكان بخيوط عنكبوتية مخيفة تمنيت أن أعود إلى غرفتى المتواضعة.. بعيدًا عن هذا المنزل الفاخر الذى لم يشعرنى بالأمان بقدر ما كان موحشًا ومخيفًا.. ذكرياتى تتداعى فى رأسى مثقلة بالدمع والهموم. والحنين إلى أيام الأسرة وإلى سهراتها الوديعة يتنامى فى داخلى شرسًا ملحًا.. أشعر بحاجتى للبكاء فأنا كالأسيرة فى هذا المكان.. تمنيت أن يصرخ طفل.. أن تمر سيارة الإسعاف لتمزق هذا الصمت.. أن يحدث أى شئ لأتخلص من هذا الكابوس..

أنقذتنى عودة الأسرة من السهرة كانت الساعة تقارب الواحدة صباحًا شكرتنى صاحبة البيت بأدب جم ثم وضعت فى يدى مظروفًا فيه مبلغ (مائتا فرنك) ثم طلبت التاكسى ليوصلنى إلى البيت بعد أن دفع زوجها أجرته سلفًا.

شعرت كأن ثروة هائلة هبطت على من السماء، أطبقت بأصابعى على المبلغ فهذا أول مكسب مادى لى أحققه فى باريس بعرف جبينى وكد يمينى

هكذا تعودت التجربة وألفتها، ولم أحاصر نفسى بالكآبة والخوف كما أول مرة بل صرت أقضى السهرة بكتابة واجباتى الدراسية. أو مشاهدة التليفزيون أو كتابة الرسائل إلى الأهل والأصدقاء.

لم أصادف مرة أن رأيت الأطفال، أأوعرفت شكل وجوههم إلا من خلال صورهم المعلقة على الجدران. لقد كانوا يغرقون فى

نومهم كالملائكة.. بينما الأسـرة تستمتع بسهرتها فى الخارج، وهى مطمئنة على الأولاد.

لقد كانت هذه التجربة أول مرحلة من مراحل التعرف على الحياة العملية فى باريس هذه المدينة المليئة بالغموض، والمتاعب والتى تتعدد فيها طرق الكسب المادى فإما طريق شائك وشريف أو كسب سهل، من حياة لا تلبث أن تؤدى صاحبها فى هاوية السقوط والضياع.

ونقنطة البداية هى التى تحدد مصير الإنسان فى الغربة. هذه النقطة كلما تذكرتها شعرت بالفخر والاعتزاز لأنى اخترت طريق العمل والكسب المشروع ولو كان فى بداياته مدمّى بالشوك والمعاناة.

كبوة الفارس
عند أعتاب امرأة شرقية

، سوارع باريس مجنونة بالفرح، أرصفة من النار والضوء والموسيقى ألوان مبهرة حولت المكان إلى نهار مشع بالكهرباء والتى تألقت فوق أشجار الشانزلزية كعناقيد من النور واللالئ.

باريس هذه الأيام تحتفل بأعياد الكريسماس ورأس السنة وأنا طفلة هائمة فى الزحام والضجيج غربة موحشة تؤلم نفسى أحس بالحاجة إلى صديق ما أحادثه أن أتأبط ذراعه ونمضى معًا لامتلاك هذا الفرح الذى صنعته تقنيات العصر الحديث، وصرعات المدن المتقدمة ولكن يغمرنى شعور بوحدة الظبى المطارد الذى أضاع قطيعه فى الغابات الشاسعة، انتظر أن يأتينى فارس ما،

لينتزعنى من إسار ذلك الفراغ الكبير، أن يغمرنى بمساحات عينيه وصدره وأن اتوقع فى راحتيه كعصفور مرتجف وخائف.

أرتمى على أحد المقاعد التى يحدّها زجاج المقهى، وأنا أرتجف مقرورة، فالبرد خارج المقهى ينفذ إلى العظم اطلب فنجانًا من الشاى أدفىء به راحتى قبل حلقى اتفرج على الناس العابرين، أحياءً متعانقون تحت ندف المطر، يمرون أمامى وصوت ضحكاتهم كزقزقات العصافير، أتابعهم بعيونى، وأحاول أن أرتشف بضع قطرات من حنان مفقود فى داخلى، والزمن يمضى بطيئًا، مملاً أمام حركة الحياة المتدفقة فى الخارج.

لا أحب العودة إلى البيت لالتصق بين جدرانه الباردة دون أن أستطيع عمل أى شىء سوى بعض القراءات المتعبة، ثم النوم كدجاجة حتى الصباح، ينتزعنى من شرودى صوت رجل عربى اللسان قائلاً «أنت هنا!. شىء غير معقول أيه صدفة حلوة هذه!!».

وترتفع نظراتى إلى القامة الممدودة أمامى كنخلة باسقة، تستظلنى حتى تملأ جسدى الصغير المتوارى فى المقعد.

أقول له باستغراب وترحيب اهلاً وسهلاً :

فيما يجلس على الكرسى بجانبى دون استئذان، وكأنه على موعد معى، يسألنى وهو يغمر وجهى بعينيه..

هه .. هل تذكرتينى!

تدور رحى عقلى بسرعة .. اتأمل وجهه، وأحاول قراءة الزمن والتواريخ فى ذاكراتى المتعبة ..

هذا الوجه ليس غريبًا عنى .. مشكلتى هو أننى لا أحفظ التواريخ ولا الأرقام أما الوجوه والأصوات فتبقى محفورة بالذاكرة مهما مر الزمن.

لكنى لا أستطيع أن أتذكر من هو .. وأين قابلته .. وكيف عرفته .. ما اسمه!!

أشعر بالحيرة والحرج، فكم هو صعب على الإنسان أن يسأل شخص يعرفه حضرتك مين!!

يرى علامات الحيرة على وجهى، ويبتسم ابتسامة الواثق من نفسه، ويعرفنى بنفسه وهو يقوهل : معك حق .. عشر سنوات منذ أن تقابلنا آخر مرة فى بيروت ولم أرك بعدها ..

صرخت بفرح، وقد تذكرته آه .. أهلاً .. أهلا ..

رحبت به بحرارة، فهو أحد الأدباء العرب الذين سبق وأجريت معه حوارًا صحفيًا فى مقهى الدولتشى فيتا» فى بيروت أيام عزها وسلامها.

أضحك مستبشرة معتذرة من ضعف ذاكرتى التى امتلأت بالوجوه والحكايات والاسماء على مدى/ عمر صحفى / قضيتها فى مهنة المتاعب والمعارف والتجارب الكثيفة.

أقول لنفسى .. ها قد وجدت أخيرًا إنسانًا عربيًا مثقفًا ينطق مثلى بلغة الضاض ويملأ لحظات حياتى الموحشة بالكثير من الحكايات والحوارات التى تغنى جونا الثقافى والصحفى.

بدأ حديثًا طويلاً، عرفت أنه هاجر إلى باريس بعد الحرب اللبنانية، وعمل فى أحد المجلات المهاجرة، وأحكى له بدورى عن سبب مجيئ إلى هذه المدينة الصعبة، التى يسمونها مدينة الفن والجمال والثقافة .. عن مشاكلى معها وهو يستمع إليه بخبرة رجل محنّك دبلوماسى صقلته التجارب، حتى أصبح يملك الكثير من مقومات المجاملة والرقة وحس الاستماع إلى المرأة .. خاصة إذا كانت امرأة متعبة ليس لها من يستمع إلى همومها وظروفها الشخصية.

كنت كعصفوورة فرحة، انطلقت لتوها من أسارها فأنطلقت تغرد فى غابات آمنة حدثته بثرثرة طفولية عن أحلامى عن اصرارى على مواجهة الواقع الصعب الذى أعيشه هنا.

قال لى بهدوء :

«أنت امرأة عظيمة، استطعت أن تقهرى ذلك الغول الحضارى بإرادتك وتصميمك وصدقينى أننى عشت ظروفًا مماثلة، بل وأصعب من ظروفك خاصة وأنا هارب من جحيم الحرب فى لبنان وها أنا والحمد لله بخير وأحوالى جيدة».

أضحك خجلة .. أختفى فى اطار التواضع تقفز فى رأسى الآن الأفكار الحلوة وأنا اتطلع إلى وجهه الأليف.

أقول لنفسى : لماذا لا ننطلق معًا فى الشوارع اللامعة المغسولة بالمطر، والمتألقة بالضوء والفرح، نتفرج على جنون الناس فى باريس نشاركهم فرحة أعيادها كما الآخرين.

لماذا لا نركض معًا، أو نجلس على الأرصفة، أو ندخل أحد المسارح العريقة «الكوميدى فرانسيس»، أو مسرح «المدينة» فى منطقة «شاتليه» أو دار الأوبرا العريقة لماذا لا نذهب لنسمع الموسيقا فى مقاهى الحى اللاتينى، أو نذهب فى رحلة نهرية على زورق (الباتوموش) .. فأنا حتى الآن لم أعرف فى باريس إلا وجهها القاسى المتعب يخرجنى صوته الهادئ من شرودى .. يقول لى :

لماذا لا تعزمينى على فنجان قهوة فى بيتك!!

تتوقف كل الأفكار المشردة فى رأسى، وتحط لحظة سكون موجة وعميقة كل الأحلام التى راودت عقلى فى اكتشاف هذا العالم معه مع شريك ما، جاء بلا موعد كفارس انتظرته بجنون مراهقة انتظر لحظة حب، أو صداقة فى عالم غامض وقد أدمن الغربة قلبها.

اسأله بدهشة ساخرة :

ولماذا البيت، لما لا نذهب إلى «شاتليه» و «الحى اللاتينى» أو إلى «مونبرناس» و«الشازلزيه» يوقفنى عن حديثى مقاطعًا :

أحب أن أتفرج على بيتك الصغير أن أجلس معك على انفراد بعيدًا عن ضوضاء الشارع وزحامه.

اتطلع فى وجهه .. اقرأ على صفحته دعوة مفتوحة للحب والجنون والجنس أحاول استيعابها بعقلانية وبهدوء أعصاب.

أرد عليه : ولكن أنا هاربة من الوحدة إلى الضوضاء، لقد سأمت جدران غرفتى الباردة أريد أن أتعرف على باريس معك!!.

يضحك بثقته، وهو يضع يده على كتفى كبداية لتعارف من نوع جديد قائلاً وهو يبتسم بخبث : «لن تشعرى بالوحدة وأنت معى».

تضجّ فى رأسى أفكار سوداء .. شرسة .. خرجت من عقال المنطق والعقل .. أقول له بتحد ساخر : هل تظن بيتى متحف «اللوفر» أو غاليرى لأحد مشاهير الفن التشكيلى، أم قصرًا شرقيًا حتى تتشرف بزيارته!.

يضحك متجاهلاً مقصدى قائلاً :

دمك خفيف، وأجمل ما فيك عصبيتك وهذا يقربنى منك أكثر يقترب بجسده منى .. بينما ازداد شراسة .. تتحول الكلمات فى رأسى إلى أظافر تتهيأ للانقضاض.

قال لى بهدوء : أنظرى يا عزيزتى إلى ما حولك .. العالم كله حب ولحظة جميلة كفاك تعقيدًا .. نحن الآن فى باريس ولسنا فى الشرق .. هنا مدينة الحرية والحب.. تعالى نعيش لحظة حلوة كرجل وامرأة .. وباريس تغرى باقتناص هذا الجنون .. وهذا الفرح .. تعالى معى ولن تندمى ... فأنا أريدك..!!

تقفز فى عينى نظرات كالنار، ويتمرد شيطان أرعن فى داخلى .. هل أصفعه هل أمزق وجهه بأظافرى.

يتابع الرجل قائلاً لا مبالاة :

«أنزعى من داخلك عقدة الشرق وتخلفه.. وعيشى حياتك كامرأة طبيعية بانطلاق ولا قيود ... عيشى يومك يا عزيزتى بلا حرمان وخوف وكبت يثقل على جسدك كالكوابيس.

تهاجمنى الأفكار كتيار عاصف .. تتساقط الكلمات على شفتى كعاصفة من الوحل..

لا أدرى ماذا قلت .. كلمات قاسية ومجرحة رميتها فى وجهه .. وهو يتطلع إلى مدهوشًا .. كأنما فاجأه موقفى هذا .. كلمات هدمت كل الجسور التى حاولت أن امدها بينى وبينه .. لقد انتظرت من هذا الرجل الشرقى المثقف أن يفهم حاجاتى للصداقة والألفة أن يحدثنى بلغتى ومشاعرى أن يذكرنى بجذورى .. ووطنى لكنه للأسف أراد أن ينتزعنى من الماضى .. كما تنزع الشجرة الباسقة من جذورها لتبقى هشة متداعية أمام الرياح وعواصف التجارب.

خرج من المقهى غاضبًا وهو يرمينى بكلماته السخيفة .. معقدة .. شرقية.. متخلفة .. شتمنى بصفات هرب منها ليدجن نفسه فى واقع الغربة .. سألت نفسى بحيرة.

لماذا طلب منى هذا الرجل أن أتخلى عن شرقيتى وأصولى .. وتربيتى التى شربتها من لبن أمى، وتعرفت على خطوطها فى المدرسة والحارة والمجتمع لماذا لم يمد جسور الألفة والصداقة بيننا.

ونحن كغرباء بحاجة لبعض .. من أجل أن نزيل عن كاهلنا مرارة الحياة اليومية التى يعيشها الجميع بلا استثناء الباريسيين والغرباء.

لقد كبا الفارس وسقط مهزومًا عند أعتاب امرأة شرقية.

مساءات باريس والضياع العربى

باريس لازالت غامضة الملامح، عصيّة الفهم، أحاول أن أدخل فى أعماقها أكثر، لأتعرف على مجاهلها العريقة العميقة، كصياد مغامر، يبحث عبثًا عن كنوز وهمية فى بحر غامض، ومجهول.

ها هى الحياة اليومية تجرفنى بتيارها الثقيل، فأركض مع الصباح الباكر والعتمة تغلف المدينة بوشاح من البرد والضباب، ألفّ على رأسى شالاً صوفيًا تخوفًا من الصقيع الذى يدخل فى مسامات الجلد كالأبر الحادة، أنتعل خفًا رياضيًا وبنطلون جينز وسترة جلدية سميكة وانطلق إلى الجامعة فالدروس الصباحية تبدأ فى الثامنة صباحًا وعلى أن استقل المترو ثم الباص حتى أصل إلى مقرها البعيد عن سكنى الذى يقع فى المنطقة السابعة عشر من باريس.

أضحك فى سرّى وأنا أتخيّل نفسى فى جامعة دمشق بمثل هذه الملابس الرخيصة البالية لابد أننى سأصبح مصدر للسخرية من الزملاء والزميلات .. سيقولون عنى أنى قليلة الذوق، عديمة الاناقة بخيلة .. و .. و.

خاصة وأن ساحة الجامعة وقاعاتها كانت تشهد مباراة الموضة وأحدث الأكسسوارات والملابس وكأنها تحولت إلى عرض للأزياء والفرجة ببلاش.

هنا فى باريس يختلف الأمر الطلبة والطالبات يوحدهم هدف واحدهو تلقى العلم، والتجربة، أما المظاهر، فهى آخر ما ينظر إليه.

زميلتى الأميركية (جانيت) والتى كانت تشاركنى مقعد الدراسة عرفت أنها تنتمى إلى أعرق الأسر وأغناها ومع ذلك لم أرها إلا بالجينز الكالح والسترة الجلدية البسيطة (جانيت) اختارت طريق استقلالها الاقتصادى لذلك عملت كمربية أطفال وأحيانًا مدرسة للغة الإنجليزية فى أوقات الفراغ حتى توفر لنفسها الدخل الذى تعيش منه أثناء دراستها بباريس، مستغنية عن ملايين والدها وأمواله الطائلة.

صباح الخير يا باريس، أيتها المرأة الغارقة فى النعاس بعد ليل حافل بالعبث والجنون والكوابيس.

ها أنذا أركض فى شرايينك المسترخية .. أشق طريقى نحو باطن الأرض .. أدخل بجسدى فى زحام الاجساد المتراكضة إلى

العمل، والمتدافقة فى كل الاتجاهات كقطيع الأغنام المترو فى باريس هو وسيلة المواصلات والنقل السريع المنتظم، ليس هناك مشاكل أشارات المرور .. أو مظاهرات ومناسبات يومية يحفل بها الشارع الباريسى ويجعل وسائل النقل الأخرى كالباصات والسيارات أكثر صعوبة وتعقيدًا .. حتى أنها تثير الأعصاب إذا كان هناك موعد هام وعاجل والزحام فى المترو يصل إلى قمته بين الساعة السابعة، وحتى العاشرة صباحًا وفى المساء بين الخامسة والثامنة حتى أن عدد الباريسيين الذين يستقلون المترو فى طريقهم إلى مقر عملهم أو إلى بيوتهم مساء يبلغ زهاء نصف مليون نسمة وفى هذه الظروف قد تنعدم اللياقة والذوق الفرنسى .. عندما يتدافعون بشراسة لاحتلال مقعد فارغ، أو ليفوز أحد ما بمكان يتسع لجسده ولن تَسْلَمْ من رفسة أو دعسة قدم أو ضربة من كعب عريض .. تصاحبها كلمة (بَرْدون) (عفوًا) بسبب أو بلا سبب.

استقل عربة من الدرجة الثانية .. بين عشرات الناس البسطاء، اتمسّك بصعوبة باحد مقابض الأبواب، خوفًا من هزة مفاجئة أو ترنح عربة المترو بين محطة وأخرى، أجد نفسى محشورة بين الناس تحاصرنى .. رائحة العرق البشرى، ورطوبة الانفاق التى تثير فى النفس شعور الغثيان، أصل إلى (محطة شاتليه) وهى تعتبر أكبر المحطات التى تصل بين خطوط عديدة أمّر عبر أروقة طويلة، دهاليز، سلالم متحركة كهربائية .. أرى عمال التنظيف العرب والأفارقة والبرتغاليين ينهمكون فى أعمالهم اليومية الشاقة ازالة الاوساخ، أثار «الكلوشار»، (أى المتشردون)، زجاجات الخمر

الفارغة، أعقاب السجائر ينظفون الزجاج والجدران بمواد كيماوية حادة اسمعهم يتحدثون مع بعضهم بلهجة بلادهم فأعرف بعض منهم من شمال أفريقيا، (عالسلامة .. صباح الخير .. السلام عليكم) يتبادلون التحيات والابتسامات الودودة ويسالون بعضهم عن أحوال العيال والأولاد .. والحالة العامة .. بكلمة (سافا) وتعنى بلغتنا (منيحة جيدة، ماشى الحال).

ما أن أخرج من المترو إلى الشارع أسحب نفسًا عميقًا مع لفحة الهواء البارد النقى وكأنى أخرج من رئتى ما اختزننته من روائح كريهة ومنفرة اركض باتجاه المقهى الذى يجاور البناء الجامعى، لا أحتسى كعادتى فنجان قهوتى اليومية، وأقلب صفحات كتابى لاستعد للدرس .. إذا كان عندى بعض الوقت.

أراقب بضع عمال يقفون أمام بار المقهى يرتشفون فناجين القهوة الاكسبريس أو بعض أكواب البيرة والخمر.

أعبر شارعًا ضيقًا باتجاه الجامعة .. فى منتصفه / مطعم عربى / تلمع أضواء النيون الباهرة على واجهته الشرقية المزخرفة بالنقوش والزخرفات العربية والإسلامية تعلن بالعربية، مطعم كذا .. يقدم المطرب الشهير .. والراقصة اللولبية .. والفنان الواعد ..

تخرج من باب الملهى شلة من الساهرين العرب، يلفظهم الليل من أنفاس الصباح االعابقة بالحيوية والعمل لترميهم فى أسرتهم الخاملة أجساد منهوكة فى ضياع الليل الباريسى .. سكارى يتأرجحون فى منتصف الشارع مع فتياتهم ورفيقاتهم بين

ضحكاتهم العابثة تغيبها سيارات فارهة فخمة أتوقف بفضول وأنا احتضن كتبى الجامعية، أتفرج على حفنة من البشر يسهرون حتى الصباح بخلاعة ومجون، وينامون حتى المساء بلا هدف ولا مبالاة بينما تركض فى المدينة نماذج أخرى من الناس .. لاهثة وراء لقمة العيش المغمسة بالتعب والشقاء .. أجساد متزاحمة بالمناكب فى عربات المترو، والباصات .. وأخرى مسترخية على مقاعد وثيرة فى سيارات المارسيدس والرولزرويس.

أموال العرب تبعثر على موائد اللهو المجانى بأباحية وأسراف، بينما يسقط العمال العرب المهاجرون تحت أنياب الآلات الشرسة وفى فك العنصرية والتهميش من أجل لقمة العيش المغموسة بالدم وملوحة العرق.

ماذا يجرى داخل هذا الكهف السحرى، الغارق فى ضجيجه وأضواءه وأسراره هل هو واحد من مغائر على بابا، أم هى حكاية من بزخ السلاطين فى قصور ألف ليلة وليلة.!

أى عالم يعيشه هؤلاء الزبائن المتخمة جيوبهم بالدولارات وهم يرونن باريس بكل حضارتها وعراقتها من خلال جسد امرأة رخيصة تتلوى وترقص بخلاعة بينما يزنر خصرها وصدرها الفائر بمئات الفرنكات.

وأذكر أننى وافقت على دعوة صديقتى الجزائرية بمناسبة عيد ميلادها الذى أقامته فى أحد المطاعم العربية التى تقدم المأكولات اللبنانية اللذيذة مع برنامج حافل بالطرب والغناء حتى الصباح.

وكان يتصادف هذا مع «حصار بيروت» الذى خرجنا بمناسبته كنسوة عربيات ومن مختلف الجنسيات الأخرى فى مظاهرة نسائية صاخبة نهتف بسقوط الاحتلال الإسرائيلى وظللنا نسير تحت وابل المطر المنهمر حتى «مقر اليونسكو» حيث اعتصمت النسوة وهن يهتفن ويطالبن السلطات الفرنسية والدولية بأن تتدخل لوقف نزيف الدم، والغارات الوحشية التى كانت موضوع الساعة فى التلفزيون الفرنسى والصحافة ومختلف وسائل الإعلام.

وهذا المطعم اللبنانى .. كأنه فى معزل عما يجرى فى الدنيا .. من أحداث دامية .. فهو حافل بالطرب والغناء، والصخب حتى الصباح فتيات عربيات وحيدات يبحثن عن صيد سهل فى وجوه الزبائن راقصة تتطوح على الطاولات بجسد لدن يمتلىء أثارة ودعوة ساحرة للحب.

جلست اتفرج بين عشرات المدعويين الذين لبوا دعوة الصديقة .. أشعر بالوحدة فى زحمة هذا الضجيج .. وأحسّ بالخوف وأنا اقرأ فى صفحات الوجوه التى ارتدت أقنعتها الفولكلورية .. وكأننى دخلت فى غابة من آكلى لحوم البشر.

طلع إلى المسرح مطرب شاب مبتدئ، قدمه مذيع الحفل على أنه مطرب الجيل وصوت لبنان الواعد .. غنى بصوته القوى : موالاً عن لبنان عن جباله وأرضه وعصافيره التى احترق ريشها ولم يبق لها وطنا أو غصنًا فى تلك اللحظة تفجر جنون الساهرين حماسًا، صيحات عَلَتْ وآهات انطلقت .. تفجرت فى المكان كبقع الدم

تلطخه وتملؤه اغترابًا وحزنًا .. انهالت مئات الفرنكات على رأس المطرب الذى تحمس لرؤية وابل الأوراق النقدية يهطل على رأسه .. فقلد وديع الصافى وغنى لفيروز .. وغيرها .. ارتفعت الكؤوس تشرب نخب الوطن البعيد تشرب نخب الحصار والجوع واشلاء الأطفال الممزقة تحت الانقاض مع دماهم وكتبهم المدرسية أى مزاد رخيص للوطن .. يقدم فى كباريه ليلى أو مطعم أو مربع للسكارى ويشرب فيه كأس الوطن نبيذًا أحمرًا بلون الدم .. والموت، ودمار الإنسان.

أى حب للوطن، يتجسد باهدار مئات الفرنكات على رأس مطرب صاعد يتوج بطلاً وأميرًا وفارسًا .. بينما مئات الفقراء لا ينتظرون أكثر من رغيف خبز أو خيمة أو مأوى .. بكيت لوحدى .. بينما كان زملاء الطاولة المحتفلة يهرجون ويغنون للصديقة «سنة حلوة ياجميل» سنة حلوة ياثريا ..

أنا الوحيدة الضائعة فى ليل باريس العربى فى تلك الغابة البشرية التى شاهدت فيها نماذج والوان لبشر يتراقصون على أنغام وايقاعات الطبول .. كزنوج تحتفل بضحيتها .. وبموت أحد زعمائها، أو رموزها.

بلا اعتذار .. غادرت الطاولة وهربت من المطعم .. بلا هدف، مشيت فى عتمة الشوارع الفارغة من الناس، ممزقة وضائعة .. بينما باريس تلفها خيوط الفجر .. ويشوبها هدوء مبهم وسخيف.

تمنتيت لحظتها أن أعود إلى الوطن أن أبكى عند أقدامه .. وأجدد عهد الوفاء له .. مهما طالت أيام الاغتراب

الكلب فى باريس مدلل، وأمبراطور وهو دائمًا على صواب

قرأت فى أحد المقالات الصحفية المقدمة التالية :

«أياك أن تركل، أو ترفس كلبًا فى حالة ضجرك، بل أعلم أن القوانين كلها مع الكلاب، وإذا كنت واحدًا من نصف المليون اللذين تعضهم الكلاب الباريسية يوميًا، فلا تبتئس، ولا تحزن حين يجابهك صاحب الكلب قائلاً :

عندما يعضك الكلب فاله على صواب

وأنا المرأة القادمة من الشرق ومن بلاد لا تعرف أصول التعامل مع هذه الحيوانات إلا ما ندر، كما فى حالات الحراسة أو فى المزارع والقرى ومعظم البيوت عندنا ترى القطط الاليفة كحيوان

نظيف، وجميل، أو تشترى العصافير لتزين شرفاتها وتتمتع بصوت زقزقتها لكى تعيد الإنسان إلى لحظة استمتاع بالطبيعة خاصة بعد أن سجن نفسه فى اسار البيوت الأسمنتية، التى تشبه علب الكبريت وأنا شخصيًا عندى خوف مزمن من الكلاب، نتيجة حادثة، تعرضت إليها وأنا طفلة من كلب شرس لذلك ما أن يقترب منى كلب ليشمنى أو بتدلع علىّ، حتى اتقوقع خائفة من مقعدى، واستنجد بنظراتى من صاحب الكلب لكى يخلصنى من مداعبات كلبه الضخم المدلل.

وأنا لست ضد مبدأ الرفق بالحيوان، إلا أن المبالغة فى تدليل الكلاب ولو على حساب الإنسان نفسه قد يشعرنا نحن (كبنى آدميين) ببعض الغبن أو نوع من الحقد أو القهر، خاصة إذا رأينا حالة إنسان مشلول أو بائس، أو عجوز يتسول بضع فرنكات كى يأكل ويسد جوعه بينما تصرف مبالغ طائلة على الكلاب لطعامهم، ولتربيتهم، حتى أن هناك صالونات تجميل لقص شعورهم وأظافرهم وبوتيكات خاصة لألعابهم وإدواتهم وملابسهم الشتوية، بل أن لهم أطعمة خاصة ينتجها (٣٤) مصنعًا مخصصًا لهم يقدم بمعدل (٥٠٠) ألف طن من الطعام سنويًا لقد ذهلت وأنا اقرأ أحد الاحصائيات عن عدد الكلاب فى فرنسا الذى يشير إلى معدل كلب واحد لكل خمسة أشخاص، أى أن عددهم يصل إلى (٨) ملايين كلب و (٦) ملايين قطة هذا عدا هواية اقتناء الفئران والسلاحف والزواحف وما مشى على الأرض أو زحف.

وللكلاب أسواق خاصة لبيعها، وهى تقدر أحيانًا باثمان غالية حسب نوعيتها وسلالتها وإذا قررت شراء كلب، عليك أن تقوم بسلسلة من الاجراءات لتبنيه حيث يشترط على المشترى أن يكون عطوفًا وحنونًا ليس له سوابق إجرامية كما يضمن له الرعاية الطبية والاجتماعية اللائقة أنه كائن مدلل عليك أن تؤمن له نزهة يومية فى الحدائق العامة أو الشوارع حتى ولو كانت درجة الحرارة عشرة تحت الصفر وإلا أصيب بحالة اكتئاب، أو قهر يضطرك لأن تحمله إلى طبيب نفسى يكلفك ما لا طاقة لك به.

جارتى الإيطالية .. عندها كلب من نوع (كانيش) كنت أراها ترعاه وتدلله كطفلها الصغير .. ذات مرة غابت عنه طوال النهار مشغولة بأمر طارئ وهام وعندما عادت إلى البيت، وجدت (رينغو) وهو اسم كلبها الأسود المدلل، قد احتج عليها وثار بطريقته الخاصة مزق لها الوسائد والأغطية وكسر لها كل ما وقعت عليه عينه من تحف وأدوات، تعبيرًا عن سخطه وغضبه وبدلاً من أن تضربه أخذته فى أحضانها وهى تتمتم بالطليانى (معليش يا حبيبى حقك على ماتزعلش) وقد تعرفت على جارتى الإيطالية الشابة، بفتح حوار معها حول كلبها الرائع الاسود (رينغو) والذى البسته بالطو (سترة) صوف من نفس لون ملابسها، حتى تبدو معه فى أناقة متناسبة ومتكاملة فقد تشجعت جارتى، وتحدثت معى عندما مسحت بيدى برفق على شعر (رينغو) االأكرت الذى صففته بطريقة خاصة، وعقدت له شريطة ملونة أسوة بتلميذات المدارس البريئات .. فهى لم تتمالك نفسها وقد وجدت منى هذه الرقة

المتناهية فى معاملة حبيبها الصغير، من أن تدعونى إلى فنجان قهوة فى بيتها وكان حديثنا بنصبٌ بشكل خاص على ذكاء رينفو ورقته، ودلعه أحيانًا، بل وأسرت فى أذانى بانها ترغب فى البحث عن ابنة حلال له، وعندما سألتها بفضول .. كيف ستجديها ..!! أجابت بابتسامة خبيرة .. سأعرفه على كلبات صديقاتى ربما يعجب بواحدة منهن ويقبل بالاقتران بها .. فهى تتمنى أن ترى رينفو أبًا تربى له أولاده، خاصة وأنه فى سن طائشة .. إذ بدأ بالتحرش بكل امرأة وكل كلبة يراها، وهذه الظاهرة تحتم عليها أن تجد له بنت الحلال فورًا.

وطبعًا تركت جارتى الإيطالية تحلم بعروس رائعة ومناسبة (لرينفو) وذهبت إلى البيت وأنا أقول لنفسى كم فى هذا العالم من أنصاف المجانين.

بعد أيام اتصلت بى جارتى الإيطالية، تزف لى بشرى زفاف (رينفو لكلبة (لولو) ذات الاصل العريق ودعتنى هذه المرة إلى احتفال صغير تقيمه بهذه المناسبة لنتناول فيه أصناف الكاتو والحلويات الفرنسية والإيطالية الشهيرة.

وقد حاولت خلال حياتى فى باريس، أن أخلق نوعًا من الألفة، مع الكلاب سواء منها النوع الصغير الذى يشبه الفئران إلى النوع الذى يصل بحجمه إلى حجم حمار أو دب صغير وقد وضعتنى هذه التجربة مع مشكلة طبقية هى فى معرفة نوع الكلاب، ومدى ألفتها أو شراستها حتى لا أقع فى تجربة مماثلة لتجربة الطفولة والتى لازالت عقدتها متأصلة وباقية فى نفسى حتى اليوم.

لقد كان مؤجر المنزل يسكن فى الطابق الأول (فوق مسكنى مباشرة) يملك كلبة ضخمة من نوع (الوولف) .. وكان يعشقها عشقًا أعمى بل ويرى فيها مثال الأخلاص والوفاء الذى لم يجده مع الزوجة التى هربت مع عشيققها وتركته متوحدًا مع نفسه وكلبته المخلصة.

كانت شرسة وضخمة الحجم، وكلما رأتنى أدخل باب العمارة تستقبلنى بنباح أرعن وهجوم ساحق تجعلنى اتسمر فى مكانى وأنا ارتجف من الخوف بينما يركض صاحبها ليهدأها ويأمرها بأن تدخل إلى الدار فورًا ثم يتعززّ منى تأملاً «معليش أنها لا تعرفك بعد ولكن ثقى أنها مؤدبة وخجولة وستحبك مع الأيام».

وتعددت هذه الحالات، حتى أصبحت أدخل منزلى وأنا أتوجس حذرًا وخوفا من أن أقع فى شراك هذه الكلبة التى كانت من النوع الذى يفتقد الذكاء والنباهة فى أن تعرفنى جارة لها، على مدى كثرة ترددى البيت فقد أصرت على معاداتى، والزمجرة بوجهى كلما رأتنى ولم يكتف جارى بهذا القدر من تعذيبى «الغير مقصود» خاصة وأننى كنت أسجن نفسى بين جدران الغرفة المعتمة ريثما أشعر بالامان فى أن الكلبة أصبحت خارج العمارة أو بعيدة عن ناظرى كان جارى (مسيو جورج) يصطحب معه فى بعض الليالى صديقته البرتغالية ومعها كلبها وهو من نفس نوع «فصيلة الوولف».

فتبدأ قصص الحب تنسج فصولها بين جارى وصديقته وبين كلبته المدلله وحبيبها ويبدأ الخبط والعواء والركض فوق رأسى،

واتخبط فى عذاب الارض اتقلب على فراشى واضع الوسادة على راسى حتى لا أسمع الضجيج .. فأن خبطة حادة تمزق صمت الليل أحاول القراءة .. لكن معركة الحب الدائرة لا تخفى ضجيجها فى مثل هذه البنايات العتيقة الخشبية فاضطر إلى تناول قرص مهدئ لأنام كالقتيلة، حتى الصباح واصحو على صداع ثقيل .. يلازمنى طوال فترة النهار.

وقد لاحظ مسيو جورج أن دوائر سوداء حول عيونى، وأن وجهى شاحب متعب، فسألنى برقة وتهذيب ما إذا كنت مريضة أو أعانى من شيء ما وابدى استعداده ليصحبنى إلى طبيب يشخص حالتى وقبل أن أفاجئه ابحتجاجى من تصرفاته، وتصرفات كلبته المدللة .. بادرنى فرحًا ومستبشرًا قائلاً لى :

تصورى أن «ليلى» حامل وسوف تنجب لى مجموعة نادرة من الكلاب الجميلة تملأ حياتى سعادة وحبًا..

ويا فرحى بهذا النبأ العظيم، فأنا بمصيبة واحدة، أكاد أفقد عقلى واتزانى وصحتى فكيف إذا كان أمامى مواجهة عدة مصائب أو أعداد من هذا النوع.

فى تلك اللحظة .. خرجت من البيت وأنا مصممة على البحث من جديد عن مسكن آخر الشرط الأول فيه أن لا يحتوى على أية أصناف حيوانية من هذا النوع وكم كان هذا الشرط صعبًا ومستحيلاً.

ثلج، ثلج فى باريس

ثلج، ثلج «عم تشتى الدنيا ثلج» هكذا كانت تغنى فيروز لجبال لبنان البيضاء الشامخة أيام زمان .. قبل أن يقتحم جنون الموت والدمار عالمها ليحولها إلى جبال مهجورة .. محروقة الاوصال.

والعرب فى باريس يتذكرون أغنية فيروز أيام البرد والثلج فدرجة الحرارة وصلت بعض الأحيان إلى أكثر من عشرة درجات تحت الصفر وتحولت شوارع باريس وساحاتها وبيوتها إلى ساحات ضوئية بيضاء، يغمرها الصقيع والبرد والاضواء المشتعلة والناس فى باريس فرحة بالثلج، ربما يجدون فى قدومه علاقة خير للعام الجديد الذى جاء، وقدمه مبلولة، مندثرًا بعباءة بيضاء فضفاضة، لا يشبع المرء من مرآها، خاصة، وأن الثلج ينهمر بلا انقطاع كزهور الياسمين على الوجوه والاجساد والمعاطف الفرائية الثمنية.

يبتسم الفرنسيون وهم يتمتمون بالفرنسية (أوه ترى فروا) وتعنى برد قارص .. بينما نحن العرب ننفخ فى اصابعنا المتجمدة ونحن نتمتم بالعربية (حوح حوح يا بردى).

أجلس وراء زجاج المقاهى الرصيفية الدافئة، ارتشف فنجان الشاى الساخن، واتأمل العابرين تحت ندف الثلج وقد تدثروا بالمعاطف والقبعات يتمشون أو يركضون أو يعبثون مع بعضهم برشقات الثلج الناعمة أتذكر أيام الطفولة الهادية يوم كنت فى رحلة مدرسية إلى أحضان جبل (بلودان الأبيض)، أو إلى قمة (جبل الشيخ) كنا نلهو بالثلج فنتزحلق، نركض نتضارب بكراته بعفوية وشقاوة بينما ضحكاتنا تزقزق كعصافير الدورى الفرحة بقدوم مواكب الربيع كنا نشكل رجل الثلج بأصابعنا الصغيرة المقرورة، نضع على رأسه قبعة من القش وعلى رقبته شريطة ملونة أشبه بربطة العنق نتفنن فى تزيينه ثم ندور حوله نرقص ونغنى ونحن نتوجه على عرشه رجل الثلج، وفارس الشتاء القادم عبر غيمة باردة.

نسيى الناس فى باريس فى غمرة فرحتهم بالثلج، أخبار فقراء يكرهون الشتاء ويخافون لونه الأبيض ربما يذكرهم بلون الكفن .. أو شكل الموت القادم على جناح النعاس والغيبوبة.

أذكر رحلة جامعية قمنا بها إلى بيروت .. وانقطعنا بسبب تراكم الثلوج والانهيارات الثلجية فى منطقة ضَهْرِ البيدر مع عدد كبير من السيارات المسافرة التى قادها سوء حظها إلى ارتياد هذه المنطقة

الخطرة فى مثل هذا الطقس المنذر بالخطر والخوف لقد عشنا عزلة مرعبة بين الثلوج ونحن نواجه خطر الموت الأبيض والثلج المنهمر بلا انقطاع حتى كاد أن يدفننا فى أعماقه الباردة.

أحسست وقتها كم الطبيعة عنيفة وجبارة عندما تعبس فى وجه الإنسان فرغم جمالها الوحشى الخارق ها هو الثلج ينهمر كفراشات الضوء كندف القطن الابيض، يغمرنا بفيض من جمال شاعرى .. ونعاس الموت المتسلل بنعومة عبر العروق المتجمدة التى تفقد حساسيتها .. وتصبح أشبه بأنابيب فارغة ميتة .. وباريس .. تذكرنى اليوم .. بتلك الرحلة المشئومة التى وضعتنا عند حافة الرعب والانبهار.

واسمع يوميًا فى الاذاعة الفرنسية عدد (الكلوشار) اللذين ماتوا على حافة الارصفة متجمدين من الصقيع تساقطوا فى زوايا الشوارع المهجورة واحداً تلو الآخر حتى اضطرت السلطات الفرنسية إلى فتح بوابات المترو والانفاق أمامهم يلجأون إليها حتى تنحسر موجة البرد التى وصفها الفرنسيون بأنها سيبريا جديدة لم يسبق لهم أن عرفوا مثيلها منذ سنوات طويلة.

توقفت، وأنا أجرى مقرورة نحو المترو أمام منظر غريب .. سيارة تحمل عددًا من القدور الممتلئة بالحساء الساخن .. بينما (الكلوشار) وقفوا فى صف منتظم يتناولون نصيبهم من الحساء الذى توزعه عليهم الدولة كنوع من المساعدة الاجتماعية خاصة فى

مثل هذه الظروف الصعبة وسمحت بايوائهم فى محطات المترو بعد الواحدة صباحًا خوفًا من ضحايا جدد للموت الشتائى المفاجئ القادم من عباءة بابا نويل ... ورجل الثلج الأبيض.

***

الكلوشار العالم كله
قنينة خمر.. وضياع

أنهم تلك الفئة من البشر التى ترفض كل الانتماءات .. إلى الأسرة والمجتمع والدولة .. ترفض الانتماء إلى الحاضر والمستقبل فئة هامشية مهزومة وجدت فى اغترابها عن العالم منفسًا وهروبًا .. ليعيشوا واقعًا يرفضون فيه كل شىء .. الأسرة، والمجتمع والقانون والدين حياتهم زجاجة خمر رديئة يفطرن بها ويتعشون .. ربما تحملهم إلى عالم النسيان والهروب على طريقتهم الخاصة .. مدمرين من الداخل .. ومنبوذين من المجتمع.

من بين هؤلاء (الكلوشار) .. قد تصادف المثقف .. أستاذ الجامعة رب العائلة .. الموظف ـ العاطل عن العمل أو السياسى المهزوم أو واحد من المحاربين القدماء من ضحايا حروب عديدة خاضتها فرنسا طوال تاريخها الاستعمارى الطويل.

هؤلاء البشر يعيش فى داخلهم هاجس الخوف والاغتراب واللانتماء .. فالمجتمع والوطن لم يقدم لهم فى النهاية سوى زجاجة خمر رخيصة .. ومستقبل غامض بلا ملامح لذا تراهم يخطبون بين الناس خطبًا عصماء ينزلون فيها بسلسفيل الحكومة بدءًا من رئيسها وانتهاءًا بأصغر مسؤول فيها .. وهم يتخذون منابرهم من مقاعد المترو .. وارصفتها ويوجهون شتائمهم فى كل الاتجاهات وأمام جمهور المنتظرين الذى تعود صرعاتهم الجنونية الصاخبة.

أسباب كثيرة وراء ضياع هذه الفئة المشردة فى المجتمع والتى نجدها بكثرة فى محطات المترو والانفاق، الكراجات والمناطق المهجورة .. قد يتخذون مواقعهم فى بعض الساحات العامة عندما يسود باريس طقس دافئ مشمس فتراهم يسترخون على المقاعد الخشبية فى منطقة «المونيرناس» .. و «شاتليه» وساحة «سان ميشيل» .. يتسولون بضع فرنكات ليشتروا بها زجاجة الخمر .. بينما يتلقون من الناس النظرات المتأفقة بسبب وساختهم المنفرة ورائحتهم الكريهة .. لأن النظافة هى عدوهم الوحيد لذلك تلجأ البلديات الباريسية إلى جمعهم قسرًا وبالقوة فى حافلات خاصة لتجبرهم على حمام ساخن خوفًا من أن ينقلوا الجراثيم إلى الآخرين.

هؤلاء سقطوا فى هذه الهاوية بسبب ظروف صعبة قادتهم إلى الخمر والشارع كوسيلة للنسيان والهروب منهم انتمى (للكوشار) بسبب البطالة أو الفقر المدقع أو بسبب مشكلة نفسية أو عائلية

بعضهم من طرده من البيت أسرته أو أبناءه .. أو أصحاب مسكنه لأنه لم يستطع أن يدفع أجرته أو طردته الزوجة لتتفرغ لعشيقها أو كان مجرمًا دمويًا فى أحد الحروب، بدأ الندم يقتل فيه حب الحياة والطموح.

لذلك تجد منهم يختار التأمل والصمت للغوص فى عالم خيالى قد يحقق أحلامه المكسورة .. أو كهروب من الواقع القاسى إلى أحلام وردية.

أو يهرب إلى الشكوى والشتائم ينفث فيها عن حقده وأحزانه وضياعه يجلس (الكلوشار) أحيانًا جماعات يتناقشون ويتخانقون بصوت مرتفع أو يتضاربون أحيانًا بسبب واحدة من (الكلوشارات) .. يريد أن يصطفيها لنفسه عن الآخرين، أو حتى من أجل عقب سيكارة أو كسرة خبز يعثر عليها أحدهم فى سلة المهملات لكنهم لا يلبثوا أن يتصالحوا مع رشفة خمر يقدمها أحد الاطراف المتنازعة فضًا للمشكلة.

وأنا غالبًا أحب أن أراقب هذه الفئة من الناس ربما أجد فى وجه ما تجربة تستحق الكتابة عنها.

أحد من الشباب (الكلوشار) طلب منى فرنكًا وقبل أن أمد يدى إلى جيبى بادرنى بشتيمة حادة آثرت من خلالها الهرب من وجهه الذى امتلأ بالكدمات ويبدو أن هذا (الكلوشار) استفزازى حاد الطبع على عكس زميله الوقور الذى قال لى بأدب جم : «لا تحتقرينى لأنى أتسول .. فأنا رجل فنان .. ولكنى جائع وهذا

صديقى الذى يجلس فى الطرف الآخر شاعر انكليزيًا» له عدة مؤلفات .. لكنه يرفض مجتمع الزيف .. والرياء كان يحدثنى بكلمات هادئة كأى واحد من العقلاء .. ألقيت نظرة على الرجل الآخر .. كان فى الخمسين من العمر أبيض الشعر .. رث الثياب يحمل عددًا من الكتب البالية المتسخة .. يقرأ فى كتاب صغير .. بينما يرتشف بين لحظة وأخرى بضع قطرات من زجاجته سألت الكلوشار العجوزالمؤدب .. وأنت أى نوعية من الفن تمارس؟

أجابنى وابتسامة واثقةعلى شفتيه : «أننى فنان بصنع الحلوى» «لقد كنت أعظم من صنع الكاتو فى منطقتى .. أنا من ضواحى باريس كان الجميع يشهد على كفائتى بصنع الحلويات .. لكن الجميع تآمر على .. الضرائب والغلاء والاسرة وهذا المجتمع الحقير .. و .. و.. »ارتفع صوته عاليًا فى شتائمه التى لم يسلم منها أحد من الحكومة الفرنسية منذ أيام ديغول وحتى اليوم.

تحولت أنظار العابرين على .. ترمقنى بنظرة فضولية مشفقة..

أنقذنى قدوم المترو .. سارعت إليه بينما يغيبنى الزحام عن مرأى الرجل الذى تابع شتائمه .. على بقية الناس والخلق.

كثيرًا من (الكلوشار) إذا ما حدثتهم فتحوا لك قلبهم وحدثوك عن ماض ثقل بالمعاناة والألم .. فى أحد الشوارع المتفرعة من حى «الشانزلزيه» تعودت رؤية شاب وسيم فى الثلاثين من عمره .. دائمًا مع كتبه وعدته الغريبة التى يملأ بها رصيف الشارع إذا جاع

حول الشارع إلى مطبخ متواضع .. تراه يشعل موقدًا صغيرًا يسخن الطعام أو يطبخ أكلة مفضلة لديه لا يأبه لنظرات العابرين بل ويعتبر صديقًا حميمًا لطلاب المدرسة الثانوية المجاورة كان يعطوه ما يتبقى منهم من قطع الشوكولا والسجائر .. وعندما يتمدد على غطائه البالى ينهمك فى قراءة كتابه المفضل .. دون أن يعنيه أى شىء فى العالم وكان الشارع يصير بالنسبة إليه بيتًا أو مرفأ لأحلامه.

وقد روى لى أحد الاصدقاء بأن أحد (الكلوشار) .. كان قد روى له قصته .. وعرف عنه أنه كان رجلاً غنيًا .. لكن أسلوب الحياة المادية المليئ بالنفاق الاجتماعى وعلاقات المصالح المادية جعلته يفضل أسلوب الحياة البوهمية المليئة بالحرية بلا قيود ولا ضوابط .. قال للصديق : «أنظر إلى هذه العصا التى أحملها .. أن فى داخلها مجموعة من النقود الذهبية من نوع «نابليون» تكفينى كى أعيش فى أفضل حال وأهنئ بال حتى نهاية العمر .. ولكن أنا سعيد بحياتى هكذا إنسان حرٌ قبل كل شىء»..

وعندما سأله الصديق ماذا سيفعل بعصاه الذهبية هذه .. رد قائلاً عندما أموت يأخذها البوليس .. أو من يعثر عليها صدفة .. فتكون له فرصة الحظ .. ربما أمنحه سعادة مفاجئة تغير أسلوب حياته .. سعادة كنت أتوق لها دائمًا ولم تعطنى أياه سوى هذه الزجاجة الرائعة وهذه الحرية العظيمة الحكومة الفرنسية لا تستطيع أن تفعل أى شىء حيال هذه الفئة الضالة المشردة ..

فالمبدأ العام هو الحرية الشخصية وأى مساس بحرية (الكلوشار) نفسه هو مساس بحرية الإنسان الفرد فى هذا البلد.

يكتفى البوليس بطردهم من محطات المترو أواخر الليل ليرميهم لقمة سائغة لبرد الشوارع وعتمة الليل أو تحملهم بعض الجمعيات الخيرية قسرًا إلى حفلة نظافة عامة أو يقيم لهم احتفالات خاصة بمناسبات رأس السنة والميلاد يقدم لهم الطعام الساخن والنبيذ الجيد مع هدايا بابا نويل التى قد تعيد إلى ذاتهم بعض الانتماء إلى المجتمع والاهل.

إلا أن (للكلوشار) أيضا احتفالاتهم الخاصة .. فقد رأيت مجموعة منهم تحتفل بعيد ميلاد زميلة لكلوشارة .. زينت رأسها بوردة حمراء كبيرة .. وكانت كعك العيد رغيف مدور من نوع (بريوش) وضعوا عليه شمعة وجلسوا يغننون ويشربون نخب الصديقة العزيزة.

وهؤلاء لا يحتلفون بالعام الجديد على غرار الفرنسيين فى بيوت دافئة مع شجرة الميلاد المزينة والملونة أو فى مطاعم فاخرة يصدح فيها الغناء والموسيقى حتى الصباح بل يغرقون أنفسهم مع زجاجات الموت المجانى يغنون ويصدحون وهم لا يدرون أى موت ينتظرهم عند قارعة الرصيف لأنهم كالنعامة التى تدفن رأسها بالرمال .. فى هروبهم من الواقع .. وفى بحثهم عن اللاانتماء.

ويأتى ثلج باريس ليغمرهم بنعاسه الناعم، يسرقهم .. بخفة ويتسلل عبر عروقهم وشرايينهم الحارة من لسع الخمر .. وقسوة

الواقع اتذكر حياتنا الاسرية .. قيمنا الإنسانية والأخلاقية التى تحمى الفرد من الضياع والاستلاب .. يحميه من هاوية مرعبة قد ينساق إليها عندما يختار الإنسان مصيرًا أسودًا كهذا المصير .. تحت شعار حرية .. ولامبالاة .. وهروب من أزمة .. تضعه عند بوابة العدم والجنون.

***

الوجه الآخر لباريس فى الليل

ليل باريس حسبما يتراءى لأى إنسان .. حلم يزهر حتى الصباح أضواء وموسيقا وسهرات صاخبة.

حركة لا تهدأ فى الأحياء العريقة المعروفة ومنها منطقة الحى اللاتينى التى تعج بروادها من السياح الأجانب والطلبه والمثقفين.

مطاعم من كل بلد ولون .. أزقة ضيقة مزدحمة تحمل كل فنون العالم وجنونه وصرعاته رسمًا ورقصًا، وغناء وهواة، والعاب بهلوانية وفرق لا تتوقف عن تقديم استعرضاتهم حتى الصباح مقابل فرنكات قليلة تسترزق بها من عباد الله المتفرجين.

وحى الشانزلزيه المعروف بمقاهيه الرصيفية، ومطاعمه الفخمة أو أسواقه التى تحمل آخر صرعات الأزياء الفرنسية وأغلاها .. أو

حى الأوبرا التجارى المشهور بأسواقه الضخمة «كاللافابيت والبرانتون» ومئات البوتيكات المتناثرة هنا وهناك .. مسارح عريقة تغريك بالدخول إليها صور للوحات استعراضية مثيرة تحملك إلى عالم الفن العريق. هناك أماكن أخرى، «شاتليه»، حى «مونمارتر» «مونبارناس» وغيرها وكلها تتألق بأضوائها، وأغوائها تغرى القادم إلى باريس بالحياة المثيرة الحافلة بمتعها وجمالها.

والسياح العرب، إذا لم يكونو فى «الشانزلزيه» أو «التروكاديرو» التى تشرف على «برج ايفل» «والانفاليد» (المتحف الحربى الفرنسى) فلابد أنهم يتسوقون فى حى الأوبرا لذلك فإن القلب الباريسى لا يهدأ عن الحركة ليل نهار، لعشاق السهر حيث تتشابك الأحلام الرومانسية مع الاجواء الصاخبة .. فشارع الشانزلزيه الذى يمتد ما بين قوس النصر (رمز التضحية والتحرر بالنسبة للشعب الفرنسى) وبين نصب المسلة المصرية فى ساحة الكونكورد هو الشارع الذى يحتشد فى مقاهيه العرب حتى ساعات الفجر، خاصة منها مقهى «الفوكيت» الذى يرتاده الاثرياء ورجال الاعمال، وبعض الباحثات عن صيد ثمين وسهل .. يميز العرب بصحفهم التى يشترونها من مقابل «الفوكيت» أو بثرثرتهم بصوت عال .. أو همسهم الغامض عندما يعقدون الصفقات التجارية والاتفاقيات المالية.

ويقال أنه لولا العرب الوافدين من كل مكان إلى باريس أو المقيمن فيها لاغلقت المطاعم والمقاهى أبوابها لأن باريس تبدو

كأنها مدينة مهجورة فى الصيف لأن مواطنيها الاصليين يغادرونها إلى الاجازات ويتركون قلب العاصمة لسياحها الأجانب.

وشارع الشانزلزيه العريق أصبح بينى وبينه ألفة حميمة فيه تعرفت لأول مرة على معنى العمل الحقيقى .. وتعرفت على كل مقهى .. ورصيف، ومطعم طوال ست سنوات من اقامتى فى باريس حتى غادرته إلى عنوان آخر لكن مع كل نهاية أسبوع لابد أن أزوره، وأجلس فى المقاهى التى أصبحت أحد وجوهها الأليفة، أكتب فيها واتأمل. وأغرق فى التفكير، أو أعقد مع الاصدقاء جلسات نتسامر فيها ونحكى فى شؤون الحياة وشجونها مع فناجين القهوة، والصحف العربية، والمجلات المهاجرة التى نشتريها من اكشاك الصحف المتناثرة على امتداد الشارع.

«والشانزليزيه» كما تذكر الكتب الفرنسية، أن العاصمة الفرنسية شهدت ولادته عام ١٦٦٦ أبان حكم لويس الرابع عشر، فقد أراد هذا الملك شق طريقًا واسعة تختصر المسافة إلى قصره، فوقع اختياره على هذه المنطقة واستمرت أعمال الشق والتبليط لمدة عامين، وقام الملك شخصيًا بتشييد هذه الطريق الجديدة بعد ما اختير لها هذا الاسم الشهير.

وفى عام ١٨٣٦ فرغ المهندس «جان لويس شالفران» من بناء قوس النصر الذى سبق أن استدعاه نابليون عام ١٨٠٦ طالبًا منه بناء هذا القوس الذى يبلغ ارتفاعه نحو ٥٤ مترا .. وأصبحت هذه الساحة رمزًا وطنيًا تجرى فيه الاحتفالات الرسمية والوطنية، وعيد

رأس السنة، وعيد الموسيقى والعمال وغيرها فهذا الشارع يتدفق بالحياة والسهر الصاخب، فهناك ملهى «الليدو» الشهير ومقهى «الفوكيت» ومطاعم من كل جنس ولون.

هذا الجمال والاغواء لعاصمة السهر والليل باريس والتى لها وجوه عديدة تتنوع فى مستواها، حسب ما يطلبه أو يرغب به الزائر أو المقيم فإن كان مثقفًا من محبى الفن الجاد العريق هناك دار الاوبرا التى تعرض فى مواسمها الأوبريت، الباليه، الكونسترتو وغيرها وتحجز لها المقاعد سلفا قبل أشهر عديدة، وهناك مسارح تقدم التراجيديا والكوميديا، وحفلات الموسيقا والغناء من مسرح (الاولمبياد) الذى استضاف على خشبته مشاهير الغناء العالمى ومن العرب (أم كلثوم) و «عبدالحليم حافظ» و «فيروز» و «وردة» وهناك «الكوميدى فرانسيز» ومسرح «شاتليه» ودور الثقافة العالمية .. عالم غنى وزاخر بالتجارب الفنية العالمية .. يواكبه عالم آخر يقدم تجارب حسية رخيصة على مسارح تعرض الاباحية والجنس المكشوف، وتركز نشاطتها فى بعض الاحياء كمنطقة «السان دونيز»، وحى «البيضال» .. وتقود الإنسان إلى متعة زائلة تسرق منه روحه وفلوسه .. وتحط بمستواه نحو مدارك الغريزة الحسية والمادية وفى هذه الاحياء نجد نموذج المرأة المبتذلة التى تعرض مفاتنها بسخاء مقابل أن تحظى بزبون عابر .. أضافة إلى ما يصادف من وجود جنسى (الصنف الآخر) الذى هو لا رجل ولا امرأة يسمونهم بالفرنسية (ترافستى) وبالعربية «المخنثين» وهؤلاء لا يستطيع المرء أن يميزهم عن النساء إلا من صوتهم الذكورى الخشن، وهؤلاء

يتواجدون فى «غابة بولونيا» فى حارات باريس المظلمة يصطادون العابرين .. أو الفضوليين اللذين يتجولون فى سياراتهم فى هذه الغابة الغامضة المتعددة المسالك، والتفرعات من أجل الفرجة، ليس أكثر.

وباريس لها وجه آخر قد لا يكتشفه زائر باريس أو السائح فيهاحتى المقيم لفترة طويلة هذا الوجه الشاحب المتعب، الغامض فى مجاهله وأغواره حتى الرعب قد تكتشفه فى جولة واحدة إلى الاحياء الشعبية الفقيرة التى يقطنها المهاجرون والفقراء هناك فى زواريب وحارات «بلفيل» و «باريس»، وفى المنطقة العشرين شواهد على عالم آخر غامض ومريب يذكرك بالافلام البوليسية المثيرة فيها تدبر مختلف عمليات السرقة والجرائم .. وتباع فيها جميع أنواع المخدرات .. وتعتبر وكرًا للعصابات والعاطلين عن العمل وتخفى تناقضات ومشكلات خطيرة تعصف بالشباب أبناء هذا الجيل الجديد من ضحايا المجتمع الصناعى الذى تتنامى فيه البطالة، وانفصام العلاقات الأسرية، وفقدان الشعور الإنسانى والدينى الذى يعصم الإنسان من الخطأ والانجراف فى متاهات الشر والجريمة.

برنامج تلفزيونى تحت عنوان (باريس فى الليل) كشف فى أحد حلقاته عن خفايا الليل المثيرة من خلال مؤسسة اجتماعية تعنى بالضائعين والمرزقين نفسيًا اللذين يستعينون بها لترشدهم، أو لتخفف عنهم بلواهم من خلال اخصائيها ومرشديها الاجتماعيين

والذين يستنفرون فى الليل لمثل هذه المهمات الصعبة. من هذه الجمعيات هناك جمعية العون الشعبى. والعون الكاثوليكى، وجيش الخلاص وغيرها..

تنقلت الكاميرا فى جولة رافقت بها أحد الاطباء النفسيين فى زيارة لعدد من المستغيثين بهم فى جنح الليل وهم فى حالة يرثى لها من القلق والالم.

فى الجولة الأولى انطلقت السيارة الصغيرة التى تحمل إشارة المؤسسة الخيرية لتدخل فى أحد الأحياء الفقيرة، يدخل الطبيب النفسى إلى عمارة شبه مهدمة يطرق أحد أبوابها يدخل إلى حجرة صغيرة تذكر باجواء روايات «دوستويوفسكى» (الإنسان الصرصار) أو «فيكتورهيجو» فى رائعته (البؤساء) غرفة لا يتوفر فيها أدنى حد من شروط الحياة الإنسانية .. فتحت الباب صبية شقراء، مشعثة الشعر، بالية الملابس فى عينيها نظرة رعب .. بينما بكاؤها يخرج كأنين الثكالى يقطع نياط القلب.

اجابت على أسئلة الطبيب بجمل متقطعة، غير مترابطة، حتى يخال للمرءانها فقدت عقلها وتوازنها، وأننا أمام حالة انهيار ميئوس منها.

صرخت بوجه الطبيب : «أريد أحدًا بجانبى .. أن أتحدث إلى إنسان ما .. إلى كلب مشرد .. أننى أموت من الخوف كل ليلة وأشعر بأن الجدران ستنهار على رأسى كل لحظة .. سيخرج من هذا الشق رجل قاتل .. أو مجرم خطير».

تحملق بعينين مجنونتين .. وتصرخ .. «عالم قذر» .. وتبصق فى وجه الطبيب كأنها أوصلت اشمئزازها إلى العالم كله.

تتوقف الكاميرا .. ليحدثنا الطبيب عن حالة هذه الفتاة الصبية من خلال ملفها الخاص .. بأنها وجدت نفسها أسيرة جو اجتماعى يفتقد إلى الروابط الأسرية، الأم مطلقة والأب عابث وسكير انطلقت تتلمس أجواء الحرية المبكرة وهى فى سن الثامنة عشر .. ولم تكن تدرى أن لهذه الحرية ثمنًا غاليًا دفعته من أحلى سنوات عمرها وشبابها .. تتقلت بين أحضان الشباب .. ثم تزوجت واحدًا منهم .. إلا أنها عانت معه البطالة والجوع والمتاعب العادية فلم يحتمل عقلها أصيبت بالأنهيار .. وأودعت فى مستشفى الأمراض النفسية وعندما خرجت من المستشفى شبه معافاة، وجدت أن زوجها قد أغلق الباب بوجهها ورماها فى الطريق لقمة سائغة للجوع والمعاناة، ورفضها الأهل لأنهم لا يستطيعون الانفاق عليها وجدت نفسها وحيدة فى عالم لا إنسانى يرفضها، كونها عاطلة عن العمل فى مجتمع مادى يطبق قول المثل الشعبى «معك قرش بتسوى قرش».

تتقلنا الكاميرا إلى حالة مأساوية أخرى. امرأة تجاوزت الستين من العمر تروى للطبيب حكاية درامية يختلقها عقلها المريض، تهمس فى أذن الطبيب وهى تتلفت حولها بخوف كأنما هناك من يتلصص عليها .. تقول بهمس «كل أولاد الجيران يريدون قتلى .. أنا أراهم يترصدون بابى يريدون ذبحى وسرقة كل ما أملك ..

ولكن أنا لا أملك شيئًا .. ولا أؤذى أحدًا .. طيبة ومسكينة ... تضيف بوداعة ..

كان لى أسرة وأولاد وبيت جميل أنا الآن لا أملك أى شىء .. لقد سرقته منى العشيقة .. كانت جارتى، وكنت طيبة معها الأولاد كبروا ونسونى فى زحمة حياتهم الجديدة .. تشير إلى صور أولادها المعلقة على الجدران هذا «ميشيل» لم أره منذ عام أنه الآن يقضى فترة التجنيد خارج باريس وهو الاصغر وهذه جان ابنتى التى تزوجت فى أميركا، لم أسمع أخبارها منذ زمن اعتقد أن عندها الآن طفلة جميلة .. أنظر كم هى رائعة ليلة عرسها آخر رسالة وصلتنى منها منذ سنة .. تتذكر .. لا اعتقد سنتين أو أكثر».

تسهب المرأة فى تذكر عالمها الأسرى الذى افتقدته، فى سرد ذكرياتها الحميمة وتسرد نتفًا منها لاستعادة توازنها المفقود .. الذاكرة هشه، متعبة اثقلتها التجارب والصدمات المؤلمة يحاول الطبيب أن يخفف عنها .. أن يجعلها تستفيض فى سرد قصص من حياتها الماضية، يوم كان الأمان يخيم على عالمها .. أنها اليوم عجوز وحيدة ينهش أعصابها الخوف من الموت والقتل .. امرأة مذعورة يجنح خيالها المريض ليصور لها قصصًا وهمية .. عن قاتل قادم إليها يحمل لها الموت عبر زيارة مفاجئة..

يتركها الطبيب بعد أن هدأت قليلاً، إستسلمت لكلماته المطمئنة .. عادت إليها بعضًا من السكينة التى تفتقدها ... أغلقت بابها وهى تودعه بابتسامة محبة .. وثقة مطمئنة..

أما الجولة الثالثة لكاميرا الليل، فتنطلق عبر أحياء باريس السكنية العالية التى تشبه علب الكبريت، والتى يتحول الإنسان فيها إلى رقم من الارقام .. أو سمكة معلبة بين آلاف الاسماك الصغيرة .. فى بحر غامض ومجهول ملىء بالوحوش الكاسرة.

الطبيب يقرع أحد الأبواب، بينما يسمع أصوات يختلط فيها الصراخ، بالضرب والعويل يقرع الطبيب الباب بعنف ينفتح على مرأى رجل فى الخمسين من العمر، بدين له كرش واضح منتفخ الاوداج من الغضب وفى داخل الغرفة شاب تحلق حوله امرأة وشابان يتناوبان ضربه وطرده من المنزل.

الشاب يدافع عن نفسه .. وهو يشتم ويبكى .. ونفهم من خلال الحوار المختلط بالشتائم الفرنسية «الدونية» أن العائلة تحاول طرد الابن الشاب لأنه عاطل عن العمل، وأن أهله لا يريدونه متطفلاً على حياتهم ووجودهم والشاب بدوره يدافع عن حقه فى الحياة وسط أسرته فى البيت الذى شهد طفولته وأحلامه .. بدلا من الشارع ومخاطره التى تتهدد بالضياع والتشرد.

أمام هذه الحالة تنتهى هذه الحلقة من برنامج (باريس فى الليل) أشعر بداخلى برثاء لهذا المجتمع الفردى الذى يفتقد أدنى أواصر المحبة وصلة القرابة والدم التى نتمسك بها كشرقيين، فالناس كما يقول أحد الفقراء «يعاملونك كالحيوان إذا كنت لا تملك مالاً»، والعزلة الاجتماعية تخلق حالة يأس من الحياة قد توصل الإنسان إلى اللاانتماء وفقدان الاحساس بأهمية العالم

الذى نعيشه يختارون الانتحار كنوع من الهروب .. أو ينتمون إلى زجاجة الخمر والضياع مثل ما يحدث مع (الكلوشار) أو إلى جمعيات رافضة «كالهينيين» «والبانك» و «الروكرز» «البابكول» أو عصابات «المدرس»؟.

وكلهم مرايا تعكس بعض رغبات الشباب فى التمرد على المجتمع والقانون هؤلاء الهامشيون الرافضون فى أعماقهم تتنازع رغبتان رغبة البقاء على الهامش، ورغبة الدخول إلى المجتمع .. والانخراط فيه.

والأخطر من هذا .. هو الهروب من الواقع عن طريق الانتحار .. كما حدث لجارتنا العجوز التى تسكن فى الطابق الخامس فى شقة تقع مقابل شقتى تمامًا كنت أراها كل صباح تسقى أزهارها على الشرفة الصغيرة، أحييها بهزة رأسى وأنا أعد القهوة من شرفة مطبخى الصغير ترد على ابتسامتى بتهذيب جم. لم أكن أملك الوقت أو الحق كى أزورها أو أتعرف عليها فهنا المجتمع لا يسمح أو يتيح بزيارات عفوية بلا مواعيد، ومعرفة سابقة لذلك ظلت علاقتى بها بحدود التحية المقتضية الهذبة لا أكثر. وعرفت أنها تملك كلبًا صغيرًا يسليها فى وحدتها ويزعجنا بعواءه كلما تركته صاحبته لتشترى بعض حاجاتها الضرورية.

ذات ليلة سمعت خبطة عنيفة أرتج لها البناء أعقبها تكسير لأوانى أو حاجات فخارية فتحت النافذة والقيت نظرة إلى أسفل «ويا هول ما رايت» رايت العجوز وقد تمددت بجسدها الدامى فى

ساحة البناية بينما تحلق حولها بعض الجيران اللذين استيقظوا من نومهم أثر سماعهم لصوت الخبطة العنيفة. ركضت أجرى حافية لا تابع الحدث بنفسى بينما على الفور جاءت سيارة الأسعاف والشرطة لتأخذ جسد العجوز التى فارقت الحياة لتوها، المرأة الوحيدة التى رافقتها إلى المستشفى كانت امرأة من المغرب العربى تسكن الطابق الأول لأن الجميع اعتبروا أن الأمر لا يهمهم من قريب أو بعيد .. لم استطع النوم لعدة أيام فى المنزل .. وآثرت أن الجأ إلى بيت صديقتى الجزائرية ريثما أنس مرأى المرأة العجوز لقد عرفت بعد ذلك أن العجوز انتحرت بعد أن فقدت كلبها فى حادثة دهس، ولم تعد تستطيع الحياة بلا أنيس فاختارت هذا النوع من الهروب كمخرج لأزمتها النفسية والاجتماعية.

منذ تلك اللحظة قررت أن اتخذ أصدقاء وصديقات من نفس البيئة والجذور يتكلمون بلغتى ويفهمون مشاعرى وأحاسيسى شعرت لحظتها باغتراب حقيقى وحنين جارف إلى الأسرة .. إلى سهراتنا الدافئة العامرة بالحب وصدق المشاعر.

لحظتها كرهت وجه باريس الآخر .. باريس الكابوس والعزلة.. الوجه المظلم للقمر.

***

اعياد فرنسية
فرح وشقاوة وموسيقى حتى الصباح

مع بداية فصل الربيع من كل عام، يعيش الفرنسيون عيدًا دينيًا يسمونه بالفرنسية (الماردیفرا) وبالعربية «الثلاثاء المدهن». وربما قصدوا به المدهون بالزيت أو السمن لا فرق. هذا العيد يحتفل به قبل الصيام المسيحى بيوم واحد حيث يأكل الفرنسيون (الكريپ) وهو العجين الرقيق المدهون بالزبد والذى يرش عليه السكر أو بطبقة مربى أو، شوكولا حسب الطلب. ويتنكر الشباب بملابس غريبة مضحكة، ثم يطوفون فى الشوارع ليمطروا المارة بالبيض الطازج ورشات الطحين.

هذا العيد الفرنسى هو يوم شقاوة باريسية يخرج فيها الشباب من حياتهم الجادة إلى العبث والتنكيل بعباد الله من المارة اللذين

يتحـولون إلى هدف حىّ لقذائف صاروخيـة تطالهم من حيث لا يعلمـون، يهـجـرون الاتزان والتـعـقل إلى جنون المراهقـة وشـقـاوة الطفولة.. ورغم درجة الحرارة المنخفض إلا أن الشباب والفتيات خرجـوا إلى الشـارع فى مواكب وتظاهرات جماعـيـة، وقد تنكروا بملابس غريبـة من بينهم.. عروسًا بثياب العرس تتأبط عـريسـها الذى بدا برأس ديك يمشى على الأرض بقدمين آدميتين. واحدة من البنات لبست ملابس اميرة شرقية عقدت ذراعـهـا بيد امير عربى بعقال وكوفية.. وعباءة مزركشة. وكأنما خرجا لتوهما من قصة الف ليلة وليلة. صبى قادم من تاريخ فرنسا بالشعر المستعار والبنطلون الضيق. وآخر بملابس قرصان وآخر بزى متسـول. ساحرة تركب على مكنسة ومهرج ملّون وفتاة شقراء لبثت الزى اليابانى، بينما أخرى اختارت زيًا هنديًا وأخذت تتمايل فى الشارع تقلد راقصة هندية ربما شاهدتها فى فيلم من افلام السينما ورجل آخر إرتدى ثوبًا هو الهيكل العظمى للإنسان فبدأ كأنه قادم من مقبرة.. أو من قصر الاشباح.

جميل ان تتفرج على هذه المواكب المتكرة الملفتة للنظر.. ولكن معداتهم المؤذية التى حملوها تجعل المارة يهربون من وجه هؤلاء ويتحاشونهم إلى أقرب مقهى. أو دكان أو بناية.

لأن من تصيبه قذيفة من البيض، أو رشقة من الطحين، يتحول بعدها إلى إنسان متنكر بشعره الابيض، وبذلته الملوثة بصفار البيض، ورائحته الزنخة، سوف يلجأ فورًا إلى تاكسى يعيده إلى

منزله، أو يدخل أى مقهى يصلح فيه ما افسد من هندامه إذا كان عنده موعد أو عمل هام.

فى هذا النهار الصاخب تتحول زجاج الفيترينات الأنيقة إلى حالة يرثى لها من الوساخة. ويعيش الشباب فرصة الانعتاق من النظام والقانون إلى حالة الهرج والفوضى، تتعالى ضحكاتهم الساخرة ممتزجة بشتائم المارة ممن أصابهم وأبلهم المؤذى، ومع كل لحظة يفاجىء الإنسان بالجديد والمثير للفضول، ولكن من يستطيع أن يغامر ويتوقف للفرجة. لأن فضوله هذا سيجعله يدفع الثمن غالبًا من هندامه، وهيبته. فقد يتحول إلى شكل مهرج محترف فى كرنفال الجنون الباريسى رغمًا عن أنفه. والشرطة الفرنسية تتأهب هذا اليوم لمراقبة مواكب الشباب المتنكرين، بكل حذر وترقب، خوفًا من انقلاب الكرنفال إلى فوضى مؤذية وضارة بالآخرين. كأن يحدث شجار أو ضرب أو حادث مؤسف يقلب حالة الفرح إلى نقيضها. بنفس الوقت تحمى الشباب المشاكسين من غضب المارة الذى يقلب المزاح جدًا والعيد مأتمًا. وكثيرًا ما يتحمل الشرطى مداعباتهم العابثة عندما تنطلق قذيفة تلطخ هندامه الازرق الانيق، وتجعله اشبه بالرجل البهلوان، إلا أنه لا يملك إلا ابتسامة المجاملة تخفى خلفها غيظه وغضبه من هذا اليوم المقرف الذى يحوّل أرصفة باريس إلى امكنة للنفايات. ولا تتخلص باريس من رائحة زنخ البيض على مدى أيام متتالية رغم جهود رجال التنظيف والبلدية.

لكن يظل الجنون فنون فى هذه المدينة التى لا تنقطع من اختراع أعيادها ومناسباتها فى مزاجية غريبة، فينسلخ فيها الكبار عن اعمارهم ويتحولون إلى أطفال نهمون إلى الشقاوة والمرح هربًا من خضم حياة يومية تسحقهم بعجلتها المادية الدائرة بلا توقف يأتى الأول من مايو (ايار) لتحتفل فرنسا كلها بعيد العمل، باحتفالية وطقوس تليق بقدسية العمل وأهميته بالنسبة للفرد الفرنسى. زهرة «الموغو» هى رمز العيد لأنها تتفتح مع الربيع، وتعلن فى وجودها المحبّب السعادة والخير لكل من يحملها أو يقتنيها.

تلك الزهرة الناعمة الرقيقة التى لأزهارها البيضاء شكل الاجراس الصغيرة، تحتضنها أوراق خضراء غضّة وساق صغيرة.. هذه الزهرة هى رمز عيد العمل، لذلك يقدمها كل فرد لمن يحبه، أو يضعها فى بيته.. أو يحملها لصديق عربون محبة وتآخى لذلك تتحول الشوارع والازقة إلى مصاطب لازهار الموغو يبيعونها فى اصص خاصة قد ينسقونها بشكل بديع مع ازهار أخرى، أو يضيفون عليها الشرائط الملونة أو يزرعونها فى اصص جميلة يرتفع ثمنها حسب الشكل والطلب، وقد تباع كزهرة واحدة أو عدة ازهار حيث تلف بورق السيلوفان الخاص المزين بنقوش لها شكل زهرة (الموغو) بسعر رخيص يتراوح بين ١٠ فرنكات ، ٢٠ فرنكًا يبيعها الطلبة والعجائز.. ويتفرغ لها الجميع فى محطات المترو وأمام الدكاكين المغلقة، يلاحقك البائع بالحاح.. يذكرك بأن تقتنى زهرة العطاء والنجاح والسعادة. مقابل فرنكات قليلة.. فهو أيضًا عيد للربح الحلال والسريع، ينتهزه الجميع فرصة للكسب والاحتفال بالعمل. وربيع زهرة (الموغو) الجميلة.

عيد الموسيقى: ديسكو للشباب وتالفو للعجائز
وموسيقى فريد الاطرش للعرب

اليوم غير عادى فى باريس تغيير طرأ فى حركة الشوارع، والساحات العامة. تهرب المدينة من ارهاقها المعتاد.. من قوانينها الروتينية، وتهرب إلى حالة الجنون والحلم والفرح.. إنه يوم ٢١ حزيران/ يونيو عيد الموسيقى العالمى.. هذا العيد اخترعه وأسّسه «جاك لانغ» وزير الثقافة الفرنسى منذ ثمان سنوات وصارت له تقاليده واعرافه واحتفالاته الخاصة.. حتى مطلع الصباح.

عند إعلان هذا العيد العتيد الذى ابتدعته الحكومة الفرنسية الاشتراكية، توجه وزير الثقافة إلى الشعب الفرنسى داعيًا إياه للنزول إلى الشارع، أن يأخذ معه أى آلة موسيقية، قائلاً له افرح فالحياة كلها فرح..

تتحضر باريس وتتهيأ لاستقبال عيدها. والفرنسيون يعشقون الاعياد، وهم من غير دفّ يرقصون، فكيف إذا وجدت فرصة سانحة لذيذة ليرقص ويغنّى على ليلاه! هذا العام تغيّرت طبيعة الاحتفال وطغى عليها الطابع التنظيمى بعد أن كان الجميع ينزلون إلى الشارع شبابًا وشيوخًا وأطفالاً كلّ يحمل آلته الموسيقية ويختار أى مكان يعزف فيه، فتتحول الساحات العامة إلى مسارح وسرادق خاصة تتألق بأضواءها، البوليس يقطع حركة المرور أمام عبور السيارات فى هذه المناطق، وكل بلديات باريس تتفنن فى اختيار فرقها الموسيقية. تنظم العروض الغنائية، وتخلى الساحات العامة

من أى شىء يعكّر صفو عشاق الموسيقى حتى الصباح. محطات المترو استقبلت جوقات موسيقية وسكان الضواحى تهيأووا منذ الصباح الباكر كأنما تذكرهم بأن اليوم عيد.. وعليهم أن يستعدوا له بكل الفرح.. لتبدأ الاحتفالات الجدية مساءً بعد الساعة السادسة مساءً.

اقصد مقهى «الكوليزية».. الساكن بوداعة بين أجفان باريس المسترخية تحت أشعة شمس ناعمة، تمر امرأة تعزف على الاكورديون أغنية حزينة، وتغنى بصوت مشروخ:

«أنا أيها الليل

اضجر كلما نام عصفور

وأفرح كلما سقطت غيمة على قفاها من الضحك

وأبكى كلما خلصت كأسى

أنا أيها الليل

اهاجر مع الكراسى المشغولة تحت الشجر

واستوطن مع الفناجين الضجرانة بلا اصحاب

وأهرب مع السنونو الذى

يهرب من الربيع إلى الربيع...».

تلف المرأة بعبلتها الصغيرة تجمع قروشًا قليلة.. تعويضًا عن جهدها بالغناء والعزف. اهرب من رصيف*«الشانزلزية» إلى حالة حلم عذبة، أطير بجناح عصفور إلى غابات الصنوبر فى قرية «كسب» التى شهدت أيام الطفولة والحب الأول. أرتقى مع اللّحن أصعد نحو شرفة القمر التى تطّل على «جبل الأقرع» وسفوحه التى تستحم بالضوء وغموض الليل، أغمض عينى وأغيب مع ذكريات كامنة فى أعماق الذاكرة.. أعود إلى أيام الصبا الأولى.. «كسب» القرية الوديعة التى يسكنها الارمن. ويحدها عن تركيا جبل الاقرع الشامخ.. بيوت قرميدية.. غابات الصنوبر التى تملأ الجو باريجها العطر كما اهتز الشجر بنسمة ناعمة. كم كنا نعيش قصص الحب البريئة، بنات العائلات وشبابها اللذين يختارون الجبل مصيفًا وفرصة للحياة بعيدًا عن ضجيج المدن، واسارها المادى. كنا نتبادل الزيارات العائلية، تتحول السهرات إلى أجواء السمر وأغانى العتابا والميجانا أو كنا نغنى أغنيات أرمنية نحفظها من جيراننا فى احتفالاتهم بقطاف العنب أو عيد السيدة العذراء أو غيرها. وفى المشاوير الطويلة مع غروب الشمس كنا نتبادل رسائل الحب، ونظرات مسروقة أو كلمة يغفلها الخجل الفطرى، والخوف من رقابة الآخرين.

كنا نركض. نلعب ببراءة، نحلم كثيرًا، لم تكن لنا همومًا كبيرة فى حياتنا، الهم الأساسى هو النجاح فى المدرسة، والتفوّق. شقاوة محبّبة تختفى تحت ستار اسرارنا الصغيرة البريئة.

الذكريات تشع فى الذاكرة دافئة، والموسيقى تحملنى من «الشانزلزية» إلى مسافات شاسعة..

تعودت فى هذه المدينة الصعبة، أن أهرب من همومى اليومية إلى أحلام اليقظة. وإلى ذكريات الأمس فى الوطن البعيد.

أرشف الموسيقى بظمأ العطشان، وأخرج من كوابيس الحياة. والوحدة لأحلم بيوم قادم أفضل، وأكثر متعة وراحة بعد أن تتحسن حالتى مع اللغة الفرنسية وفى جامعة السوربون أتحول إلى تلميذة صغيرة تكتب واجباتها وفروضها كل يوم.. موضوع القواعد الذى كان يتعبنى جدًا خاصة فى تصريف الأفعال. التى كنت أحفظها صمًا ومع ذلك أخطأ فى الإملاء، واتعلم الكلام من خلال تحرشى بالناس اثرثر معهم فى أى موضوع فى محاولة أن اتعلم فن هذه اللغة الصعب، اتحرش بعجوز وحيد فى مقهى أو براكب جانبى فى المترو. يفهم من لهجتى الركيكة المليئة بالأخطاء اللغوية أننى أجنبية يسامحوننى لأنى أذكر المؤنث، وأؤنث المذكر، وقد يصححون أخطائى الجسيمة. إلا أن كل هذا جعلنى أتّعلم، واتخلص من عقدة جهلى باللغة الفرنسية وأيضًا من عقدة خجلى من الناس. اخرج من مقهى «الكوليزية». تمر شاحنة صغيرة تملأ الشارع بصخب موسيقى الجاز العنيفة. حملت فرقة موسيقية بكامل عدّتها وإنطلقت عبر شوارع باريس كأنما تهيأها لموعد مع الفرح والجنون.

طفل على الرصيف يلعب على آلة الكمنجة، يعزف معزوفة معروفة. تحلق حوله الناس يرمون لطفولته البائسة بضع فرنكات..

ربما يحملها إلى اسرته الجائعة.. على جانب محطة المترو وقفت مجموعة من الراهبات يغنين أغاني دينية ويجمعن تبرعات لصالح جمعية خيرية. إنطلق باتجاه الحيّ اللاتيني.. أعبُرُ الجسر الذى يصل «شاتليه» «بقصر العدل».. أشاهد باخرة سياحية (باتوموش) تمخر النهر وعلى متنها فرقة موسيقية تلعب أفراح وأحزان «رخمنينوف» بينما تنطلق من السيارات العابرة زمامير وطبول.. احتار أين أذهب.. فى الحى اللاتينى طلاب آسيويون لبسوا أقنعة وازياء تقليدية ورقصوا رقصة (التنّين) والأفارقة هزّوا خصورهم على ايقاعات الطبول الحارة.

فى ساحة (السان سولبيس) أقام منظموا (سوق الشعر) قراءات شعرية لشعراء اسبان، وفى الحى السابع من باريس حفلة موسيقية كلاسيكية فى قاعة المؤتمرات «باليونسكو» وقبالة «برج ايفل» كان هناك احتفال لموسيقى الروك. تجمعات موسيقية هنا وهناك الجميع يرقصون يغنون بأصوات حلوة وأخرى نشاز.. وباريس أمامى عالم ساحر ورائع.. أدور فى كل الاتجاهات، واتنقل كعصفور شارد عبر كل الاغصان من الصعب أن أعود إلى البيت، وأنا أرى المدينة تتحول بكاملها إلى مسرح حيّ.. وإلى عيد صاخب.. وأنا أحب الأعياد منذ طفولتى.. لأنها فرصة للهروب من جو المدرسة القاتم ومن الفروض المدرسية اليومية كنا نهرج بصوت واحد (هيه.. هيه) عندما تقول المعلمة غداً عطلة.. ولازلت حتى اليوم أفرح عندما تفاجئنى عطلة ما.. تريحنى من العمل ومن الركض خلف الباصات أو فى انفاق المترو وفى باريس العطل كثيرة لا حصر

لها أعياد دينية ووطنية وأعياد للقديسين. وللعمال والمعلمين والآباء والأمهات. وكل يوم يطلع لنا عيد نتهيأ له بشراء حاجياتنا من خبز ولحم وخضار، ونركض إلى البنك نسحَب قليلاً من المال يعيننا على قضاء حاجياتنا الصغيرة قبل أن تقفل المدينة أبوابها وشبابيكها ومخازنها فى وجهنا ويهرب الجميع إلى الضواحى البعيدة بحثًا عن راحة بال، وصفاء النفس بين الغابات والخضرة الوارفة.

ارتاح على مقعد شاغر فى مقهى رصيفى فى شارع «السان ميشيل»، اطلب فنجان قهوة مرّة ارتشفها بهدوء وأنا اتفرّج على جنون المدينة وغليانها.. تمر فرقة موسيقية طليانية.. تقف أمام المقهى وتعزف بعض من الحانها الرومانسية العذبة، يصفق الناس طربًا ويرددون الأغانى المعروفة كأنهم جوقة ترافق الفرقة منذ زمن.

أترك المقهى وأجرى باتجاه ساحة (السان جرمان).. أرى تجمعًا بشريًا يغرينى فضولى بالفرجة كبقية عباد الله.. أحشر جسدى بين عشرات الاجساد المتزاحمة أجد نفسى فى مواجهة فرقة موسيقية للشباب، تعزف الحانًا صاخبة بينما تتطوّح الاجساد فى رقصة عنيفة. تدفعنى فى كل الاتجاهات والحصار يشتد حولى كلما زاد جنون المغنى الشاب الذى أخذ يقلد (جونى هوليداى) ويقفز مع جيتاره الكهربائى.. ترافقه إيقاعات صاخبة حوّلت المكان إلى ديسكو حار بموسيقاه. يد شاب غريب توضع على كتفى يدعونى للرقص معه.. أهرب من حصار تلك الدائرة التى توحدت

فيها الأجساد وأصبحوا كتلة بشرية تقفز وتتطوح كأنما أصابها صَرّعٌ مفاجىء، أو مسّ من الجنون أعطى العقل أجازة، وتحرّر الجسد منغمسًا من قيوده وأعبائه الروتينية.

أهم مركز لتجمع الموسيقى، كان عند متحف «اللوفر». وأمام الهرم المعدنى والزجاجى توالى مغنو الروك وفرق الجاز، والغجر، والمارتينيك، وأوركسترا كلاسيكية عزفها عازف الكمان الشهير «اوغسنان دوماى» جمهور غفير يتفرج ويرقص أو يعزف يشارك فى العيد كما يحلو له. وكما يحب. فى ساحة (السان دونيه) عزفت فرقة موسيقية عتيقة الحان التانغو، والتشارلستون والفالس. أعادوا ذاكرة الماضى مع أغنيات قديمة (لاديث بياف وجاك بريل)، رقصت النساء المسنات مع العجائز، تعانقن بإلفة وعشق، ورقصن التشارلستون بحيوية فى محاولة لإعادة الشباب الضائع. يضحكن ويثرثرن بجزالة الأطفال.. يحاولن إستعادة ذكريات الأمس، مع عشاق رحلوا وغابوا ولم يتركوا إلا حزمة صغيرة من حلم صغير يدفىء صقيع العمر الهارب بإتجاه الرحيل الأبدى. صفقت لهن بفرح وتصوّرت نفسى بينّهن عجوزًا للحظة صغيرة.. لكنى أجفلت حين تخيلت كم من الصعب علينا كشرقيات أن نقضى بقية العمر فى زنزانة الغربة.. فى عزلة عن الأهل والوطن والأحبة.. قلت لنفسى لابد أن أعيش شيخوختى بين أحضان العائلة كجدتى.. بينما يتسلل حزن غامض فى أعماقى.. سؤال محيّر ومبهم إلى متى.. وكم السنوات سأقضيها فى منفاى الاختيارى باريس.. اتمشىّ ببطء السلحفاة، متقوقعة داخل جسدى. روحى هائمة فى

كل الاتجاهات، وحيدة ومنفردة باحزانى الداخلية.. فى ساحة «كليشى».. أرى مجموعة من شباب شمال افريقيا العرب قد افترشوا الرصيف مع آلاتهم الموسيقية المختلفة الدربكة والعود والقانون والدّف وأخذوا فى ترداد أغانى عربية، مصرية، مغربية، ولبنانية. لا فرق.. إيقاعات التصفيق والاهازيج تشدّنى. أقترب منهم، وأجلس على الرصيف مع بنات مغربيات يغنين «جارى يا حمودة»، «ياجميل ياجميل» (لفريد الاطرش). «سواح» (لعبد الحليم حافظ) أغانى «الراى الجزائرية» تمتزج مع أغنيات «عبد الوهاب الدو كالى» الحان عربية دافئة تعيد الروح.. وتدفء القلب.. حضور من كل الجنسيات تحلقوا فى دائرة واسعة حول الفرقة الموسيقية. منهم من استثارهم «فضول» لمعرفة هذا النوع من الموسيقى الحارة بنبضاتها والقية بإيقاعاتها، ومنهم من تحمّس وانسجم فقام يرقص «على واحدة ونص» مع شابة فرنسية شقراء. فتيات مغربيات لم يستطعن الصمود فهبوا جماعة إلى معمعة الرقص وقد عقدن خصورهن بشالات ملونة (لزوم الرقصة) تصير ساحة «كليشى» مسرحًا عربيًا لا تنقصه إلا الميكروفونات وتقنيات الإضاءة. أصفق بمرح وعفوية وقد اقتعدت الرصيف مع الآخرين أشارك فى الغناء وبإنسجام.. وألفة.. أشعر فى هذه اللحظة إنى عدت بروحى وإحساسى إلى دائرة الوطن وإن باريس ليست إلا وعاء لجسدى الصغير يحتويه لفترة ثم لا يلبث أن يرميه خارج دائرته الضيقة الخانقة.

الساعة تقترب من منتصف الليل. فاركض إلى المترو قبل أن يغلق أبوابه فى وجهى وأبقى فى الشارع مشردة حتى الصباح. أردّد وأنا أعبر نفق المترو الطويل «ياما الشام يلا ياما لى طال المطال ياحلوة تعالى».

وباريس لا تنام تلك الليلة.. تتنفس مسامات جلدها الموسيقى حتى الثمالة. كل واحد يغنى على ليلاه.. ورقص على هواه.. اختار محطته ورفيقته فى هذه السهرة (العيد) التى حققت تواصلاً إنسانيًا وروحيًا بين غرباء وفضولين بين عجائز ومسنّين اجتازهم قطار العمر.. لم يبقّ إلاّ بضع محطات باقية من الزمن بين رفاق نسّجوا هذه الليلة حكاية حب أو ليلة عابرة جاءت صدفة مع رقصة سلو حالمة أو جنون الجسد الذى يرقص بجنون، ويتفجر تحت وقع الايقاعات الحارة.. قبل أن أصل إلى محطة المترو يستوقفنى صوت المغنى فى مقهى فرنسى عريق، يردد أغنية قديمة أحبها..

يقول فيها:

«رسمت على رمال البحر

وجهها الجميل

كان يبتسم لى... كان يكلمّنى من على الرمل المبلل

نزل المطر

واختفى وجهها

بكيت، وصرخت،

حتى تعود إليّ

جلست، عند حافة روحها

وصرت أصرخ

حتى تعود

وكم شعرت بالحزن العميق

عندما نزل المطر».

موت مفاجئ على رصيف الغربة

فى حى «الشانزلزيه» العريق كان يتسكع وحيدًا، يحمل على ظهره المنكفىء عشرات السنوات الهارية من العمر، بين يديه صحف ومجلات عربية مختلفة الأصناف والجنسيات سياسية وثقافية، فنية لا يّهم.

دائمًا أراه هكذا، إما هائمًا وحيدًا، أو جالسًا فى زوايا المقاهى الرصيفية يتسلى بتصفح وجوه العابرين، كأنما يقرأ فى تعابيرها حكايات الناس، وقصصهم تسليه فى وحدته التى اختارها فى هذه المدينة الكبيرة. عرفت عنه أنه سائحًا بلا سياحة. مقيم فى باريس بلا عمل ولا مبرر، مصّر على أن يعيش حياة مجانية فى مدينة أنيقة مترفه طوال العام. ثم لا يلبث أن يتذكر أن له أسرة تحبه وتنتظره بكل أحلامها ودفئها، يسافر إليها يمنحها بعض الأوقات

القصيرة، وكثيرًا من الهدايا الثمينة التى يظن أنها تعوضهم عن وجوده بينهم وعندما سألته عن سبب تواجده الدائم فى باريس، قال إنه يبحث عن الراحة «ورواق البال» بعيدًا عن المشاكل والقيود والمتاعب العائلية، وأنه أعطى عصارة شبابه وعمره كى يؤمن الحياة المادية الرغيدة لأسرته وأولاده.

وهو بعد أن تجاوز الستين، وانحنى ظهره، وغزا الشيبُ رأسه، فكر فى الهروب إلى الوحدة والعزلة، والحياة الحلوة التى حرم منها طوال شبابه. فهو يصرف أمواله التى تعب فى جنيها بلا حساب. يبعثرها فى السهرات اللّيلية التى تمتد حتى الصباح.. تستنزف ماله وصحته وحيويته، معتبرًا أن هذا النوع من الحياة هو سعادة بحد ذاتها، وأنه إفتقدها فى بلده، ومجتمعه المحافظ الذى لا يسمح بمثل هذه الأمور المحرمة.

هكذا يقضى عجوزنا التائه حياته مثل وطاويط الليل. يسهر فى الليل، وينام فى النهار. ويتسلى بمطالعة عناوين الصحف والمجلات التى يشتريها بكثرة وإن وجد بقية من الوقت، يهرع إلى الاسواق ليشترى بعض الملابس الأنيقة من أفخم الماركات.. «بير كاردان»، «ايف سان لوران» وغيرها لزوم السهرات والحفلات اليومية التى لا تنته.

وتمضى سنوات العمر هكذا. مجانية، بلا هدف، ولا معنى فى غربة إختارها ليحرم أسرته وأولاده فرصة وجوده بجانبهم، وفرصة الاستفادة من تجربته الحياتية كأب لا ينتهى دوره التربوى فى حدود تأمين المال الكثير لأولاده.

أو فى الهـروب من الزوجـة التى أعطت له عـصـارة شـبـابهـا وعـمـرها. وعندما كـبـرت وإحتـاجت إليـه، هرب منهـا يقـتـرف من ملذات الحياة بلا حساب كأنما يدفن روحه فى بؤرة العفن والصدأ.

اتسـاءل ألم يفكر شيخنا العجوز، بأنه لو أحسّ بالمرض أو الألم، هل سيجد له أى جار يمدّ يدّ المساعدة والرعاية! هل سيجد فى واحدة من فـتـيـات الليل والرصـيـف.. والتى تسرق جيوبه كل ليلة مقابل متعة زائلة وسريعة صدرًا حنونًا يدفئه ويحننو إليه! كثيرون منهم يموتون ولا يعرف عنهم جيرانهم شيئًا إلا عندما تدل رائحتهم على أن نهايتهم قد حلّت منذ فترة. وإذا كان هذا الرجل العربى الذى يعيش فى مجتمع أهم ما فيه الروابط الاسرية الدافئة التى تمتّد حتى آخر العمر.. يهرب منها.. نجد أن الآباء الاوروبيين بعد أن يخرج الأبناء من حياتهم الأسرية ويهاجرون إلى عالمهم الخاص كطير تفقد حاسة العودة إلى غاباتها وأعشاشها. فإنهم يبحثون بلهفة عن طالب غريب يحتضنوه برعايتهم وحبّهم كنوع من التعويض عما فقدوه أو يعوّضونه بكلب صغير أو قطّة اليفة أو ينتهون فى مراكز العجزة كأرقام تعيش على هامش الحياة، معزولة عن كل أواصر الحب والحنان والرعاية.

قلت للشيخ العجوز «عد إلى بيتك وأسرتك، ودع رأسك يستريح فى حضن الزوجة التى منحتك حبها وعطاءها. وهى لم تنتظر منك إلا نظرة وادعة فيها عصارة العمر والذكريات الأليفة»لم يعجبه كلامى واعتبره تدخلاً سافرًا فى شؤونه الخاصة. لوى شفتيه

إمتعاضًا وإنصرف غاضبًا حتى أحسست بالندم لأنى تصرفت بهذه الطريقة. بعد أيام عرفت من صديق يعمل فى السفارة أن الرجل العجوز سقط ميتًا على رصيف الشارع بعد ليلة حب محمومة إستنفدت طاقاته وأضعفت قلبه الكليل. حُمل إلى بلاده بتابوت خشبى مقفل.. ولم يستحق فى نهايته حتى نظرة الوداع الأخيرة من أسرته وأولاده وأحبائه.

«رحيل الشاعرة سنّية صالح»
وآخر الذكريات معها فى باريس

«رحلت الشاعرة السورية» «سنية صالح» فى السابع عشر من شهر ايلول الماضى بعد صراع طويل مع مرض السرطان.

الشاعرة الراحلة لها ثلاث مجموعات شعرية بعنوان:

(حجر الاعدام). (الزمان الضّيق). (قصائد).

«سنّية» صديقة الشعر والمعاناة. وذكريات دمشق.. التى تطل فى ذاكرتى كوجهها.. تلك البنفسجة الرقيقة كانت تكشف خيوط تشوشها وإرتباكها لحظة تندفع نحو الفضاء.. فضاء آخر نحو ضوء ما، نحو تواصل ما محاولة إختراق الأسوار.

«سنية صالح» فى صراعها مع المرض فى أحد مستشفيات باريس، كتبت كثيرًا وكانت تتوقع الموت. وتحاول أن تجادله، تحاوره

بحساسيتها الخاصة من خلف سور الزجاج الذى يفصلها عن العالم، كان رفيقها الدائم القلم والورقة، وكان الشعر هو منفذها الوحيد على العالم.

«سنية صالح» زوجة الشاعر «محمد الماغوط» عاشت معه أيام حب عرفت معنى الحرمان والخوف والسجن والتشرّد.

ها هى تتشرد مع الموت عصفورة حزينة سقطت من على الغصن وهى تغرد أغنيتها الأخيرة.

كنت فى الطائرة المسافرة إلى تونس اتصفّح الصحف والمجلات التى قدمتها لى المضيفة لأسلّى وقتى ريثما نصل إلى مطار تونس.

توقفت عيناى عند خبر صاعق محزن. أحسست أننى هويت من الأعلى إلى القرار وأحسست لحظتها بضآلة الأشياء من حولى.. وتفاهة الدنيا الزائلة، تذكرت لحظتها أيامها الأخيرة عندما كنا نتمشى فى حدائق المستشفى. تحدثنى عن أحلامها الكثيرة، عن أملها برؤية بناتها «شام وسلافه» قرأت لى بعض قصائدها. كانت تحمل فى قلبها كل آمال العالم.. ونبضها يتدفق بحيوية كأنما يرفض الانصياع لشيطان هذا المرض الخبيث، الذى سرق منها الحياة والحلم.. دموعى ظلت فى عينى المحدقة فى سطور نعيها جافة أشبه بالإبر المؤلمة. أحسّست أننى لا أستطيع أن أبكيها إلا كتابة.. وأمسكت القلم والورقة وكتبت، بينما الطائرة تدخل فى خيوط العتمة الموجعة.

وجهك ياصديقتى سحابة من الحزن، أخاف أن أحدق فيه للمرة الأخيرة فأتساقط هشة كأوراق الأشجار الخريفية. أهرب من لقائك ومن سماع صوتك الهادىء. أيتها المرأة الشفافة كسحابة.. أريد أن أحتفظ بذاكرتى بآخر ذكرياتنا معًا، بوجهك المتّورد الحزين. كم كنا أيامها نرتعش عند قراءة القصائد تهرب الدموع عنوة من أعيننا، تتوتر أصابعنا على الأقلام كأنما نعيش طقوسًا غريبة ومثيرة.

اذكر لقاءنا الأخير. وأنت مغردة كعصفورة إنطلقت لتوها من القفص حملت لى أوراقك. وقرأت لى شعرًا، لمحت فيه رائحة الموت الصديدية كأنما حبل الاعدام يقترب رويدًا رويدًا من عالمك. خيّم على كلماتك لون الحزن والغمام الأسود. فهل ديوانك الأخير الذى أسميته «حبر الاعدام» هو بداية الفاجعة التى تنبأت لها قبل أن تولد!.

لقد كان الحب فى حياتك، أيتها الشاعرة الرقيقة عطاء كبيرًا بدون حدود. يكفيك أنك أعطيت من رَحِمَك زهرتان. واحدة بلون الياسمين والأخرى لها عبير البنفسج.

أية حديقة يمكن أن تظللّهما بعد رحيلك. وأنت الشجرة التى قصمت قبل الأوان «شام» ترسمك فى كل مكان.. على دفاترها المدرسية وأوراقها، على جدران المنزل الكئيبة.. أرى فى رسومها ملامح وجهك. وجه الأم الشاعرة. وجهًا طيبًا ينظر من خلف أسوار الزجاج إلى البعيد، عله يجد الأمل.. «سلافه» أرى وراء ضحكتها

الشقّية دمعة حارة توشك أن تنفجر.. اعذريني.. أيتها الملكة المسّورة بالزجاج.. ورائحة الادوية الخانقة.. هل استطيع أن اخترق هذا الحصار.. وأمدّ يدى إليك علنى انتشلك.. تتهاوى كل الازهار.. عندما يمّر طيفك فوق الحدائق.. تتهاوى كل الكلمات عندما تتفجر شعرًا متوهجًا بالعذاب ومرارة الفراق.

كيف أخرجك أيتها الصديقة الغريبة من ذلك الآسار الذى أطبق على جسدك كالمخالب. وأنت تقاومين بالشعر.. وبالكتابة متشبثة بالأمل. اعذرينى فأنا لا أملك إلا الكلمات القصيرة.

وأنت «يا محمد الماغوط».. أرى فى عينيك أيها الشاعر الكبير بقايا دموع لم تذر منها بعد، هل استطيع أن أعيد لقلبك الحزين الفرح.. وهو مّمزق ومشرد منذ الطفولة. ها هى رفيقة العمر والوحدة.. والهروب والألم. تمضى وحيدة هذه المرّة. وبلا أى خيار. وأنت تّمد يديك إليها محاولاً إنتشالها كالنسر الجريح الذى لم يعد لأجنحته قدرة على التحليق.

لقد تهاوت الأحجار على جسدك من كل جانب، حتى لم يعد يظهر من قامتك المديدة إلا رأسك المنكسر كراية عتيقة..

كلما أنظر إلى الماضى، أرى فى حياتكما لوحة رومانسية، تمتلأ بالألوان القاتمة تعكس كل ما عرفتماه من التشرد والقهر والهروب من سياط السلطة والظلم تلك الألفة التى جمعتكما كطيردن مشردين على غصن واحد.. ها هى العاصفة تخترق هدوء المكان. لتطرح عشكما فى عتمة غامضة المعالم.

هل سيخرج الشعر من أردان الموت والفجيعة؟ هل سأرى فى عينيك أيتها الشاعرة لون الربيع؟ وأشم من جسدك رائحة الأرض المروّية بالمطر.. لقد كنت شاعرة الصمت والألم.

فاقرأى لى ياصديقتى آخر كلماتك.. تلك التى تذكرنى بلقاءاتنا على مقاعد الحديقة الخشبية فى (حديقة المزرعة بدمشق) أنا أسمع وأنت تقرأين.. ووجهك يشع بالآف التعابير.

دعيينى ارتشف كلماتك، واحفظها فى ذاكرتى.. فأنا أثرثر مع نفسى كعجوز وحيدة. أثرثر بعبثية وجنون لأن الخريف قادم. والورقة الأخيرة صفراء توشك على السقوط.. وقد نزفت حتى آخر قطرة فيها.

كفاك أيتها الشاعرة الرقيقة.. لا تنظرين عبر أسوارك الزجاجية إلى الشجرة العارية. وأنت تنظرين سقوط الورقة الأخيرة. لأن فيها تلك النهاية التى أخافها وتخافينها. دعينى اتوسد صدرك للمرة الأخيرة فعلى شفتى كلمات كثيرة لم أقلها لك بَعْد. دعينى اتوسّد صدرك الذى ينبض بدفء الامومة والحب.. واختزل العالم كله فى كلمات قصيرة مبهمة اقولها لك قبل أن تمضى فى تلك الرحلة الطويلة.

ايتها المرأة التى إخترقت حصار الهدنة مع العالم، رفعت أصابعها الناعمة كالراية البيضاء.. لتعلن الحب فى زمن الشعارات والكلمات المجانية الجوفاء.

أيتها المرأة الشفافة كسحابة. لم أعد استطيع إختراق عالمك الغامض لقد أغلقت عليك الشرنقة. ورسمت باصابعك على الواح الزجاج زهرة منكسّة ذابلة.

ها أنا خائفة، ووحيدة وأنا أنظر باتجاهك.. باتجاه مملكتك السحرية دون أن أجرؤ على الاقتراب منها. فاعذرينى يا ملكة الشعر والألم. لن استطيع أن أنظر إليك ثانية. لأنى أحملك فى ذاكرتى.. صورتك الحبيبة مشعة متوهجة تصور ميراث الشعر كله. اقرعى ناقوس الشعر ودعينا نسمع آخر كلماتك قبل أن تسقط الورقة الأخيرة..

غربة تحت درجة الصفر

أنا وحيدة فى باريس أعانى الضجر.. وكأنما أعيش فى عزلة الصحراء. باريس السهر والليل والأضواء.. وأنا أركض باتجاه بيتى البعيد، أمرّ فى شرايين المترو الضيقة.. مع قطيع البشر العائدين متعبين عابسين من أعمالهم يحملون (الباكيت) (رغيف الخبز الفرنسى) الطازج الذى تعوّدت أن أقضم نصفه فى الطريق اسكاتًا لجوع عانيته طوال النهار. فغالبًا ما يكون الغذاء «سلطة» أو سندويش أو أى حاجة سريعة عالواقف.. هاأنذا بعد سنوات من الغربة ومن التعايش مع هذه المدينة الغريبة، أعيش مع الحياة كأهل البلد.. اركض منذ الصباح إلى العمل.. أعمل كآلة وأجرى فى كل الاتجاهات ألاحق الخبر الصحفى أو أحضر المؤتمرات والزيارات الرسمية لرؤساء الدول.. فى حفلات الكوكتيل والمعارض، والمناسبات التى لا تنتهى فيها أنذا بعد جهد وتعب حصلت على

وظيفة لأئقة فى الصحافة، وعلى مسكن أنيق، وأصبحت لغتى الفرنسية «ما شاء الله»، ومع كل هذا أشعر بالوحدة وأنا أعود لبيتى.. ويصير الهاتف هو لغة الاتصال الوحيدة بينى وبين العالم كله.

الدفء عزيز جدًا فى الشوارع الغريبة الوحيدة.. يشعر الواحد منا رغم زحمة الحياة والاصدقاء إنه فى صحراء اصطناعية بلا قلب. والعلاقة بين شاب وفتاة فى هذا المجتمع الأوروبى أشبه باتحاد بين عزلتين..

أنا كعربية.. صدمنى الغرب ولم أتعود بعد على مفاجآته. كان بالنسبة لى قبل الرحيل ساحرًا.. غامضًا حلمت به وتصورت أن الحياة هنا جنة وكأن الحياة الباريسية هى «مغاور زمرد وياقوت».

وها أنا أبحث بلهفة عن صديق حقيقى.. عن أخت وأم وحبيب يملأ فراغ الوحشة التى اعانيها. الغربيون إقتنعوا فى النهاية بمعايشة الأمر الواقع. وأصبحوا مجرد أرقام تتحرك وتتنفس بروتين مّمل لا يخرجون منه إلا فى العطلة الصيفية أو الشتوية يتهيأون لها بكل المال والأحلام ليقضوا أيامًا بعيدة عن ملل العمل ونظام الحياة الروتينى.. تصطدم كل يوم بوجوه عابسة مكفهرة. ونحن كعرب نعشق الضحك والتنكيت حتى ونحن فى أحلك مصائبنا. وكم يغيظ فرنسى أن يرى وجهًا يضحك بجزالة.. حتى يصير أشبه بظاهرة متفردة.. وغريبة وأنا لا استطيع قمع دندنة لاغنية حلوة تعلمتها فى الطفولة.. حتى ولو كنت أتمشى كالسلحفاة

وحيدة أتأمل ذؤابات الأشجار الخضراء فى حدائق (الشان توان) الضاحية الباريسية التى اسكن فيها. وأنا لا أستطيع الإنسلاخ عن الحياة الاجتماعية التى تعودتها فأعزم الأصدقاء والصديقات على وليمة دسمة من مأكلنا الشهية اتحضّر لها قبل يومين.. نجلس على الوسائد.. نسمع أم كلثوم وفيروز.. ونشعر بأننا انسلخنا كل الإنسلاخ عن هذه العزلة المرّة لنعيش لحظة توحّد مع الحنين والشوق لأيام حلوة فى ذاكرة الوطن. فى سهرة ميلادى اجتمع فى منزلى الصغير العديد من الأصدقاء والصديقات عندما أحصيت الجنسيات العربية التى وجدت تلك الليلة وجدتها تشكل وحدة عربية نموذجية بين المشرق العربى والمغرب بين أحباء تجمعهم لغة واحدة ويوحدهم همّ مشترك وغربة واحدة. ويعزف لنا أخ تونسى على آلة البزق وآخر من المغرب يرافقه على الدف. ويصدح الجميع بأغانى عربية قديمة وحديثة عاطفية وثورية ننتشى مع الحماس والتصفيق والزغاريد، ولا ندرى أن البوليس الفرنسى يقرع الباب بعد أن أتصل به الجيران يشكون من ضجيجنا الذى أرّق نومهم الدجاجى المبكر. نلّملم عّدة السهرة ونتكلم بهمس.. بينما يعتذر المدعوون عن الإساءة لى من غير قصد. بعد أن جاءت «فرقة من البوليس بكامل عددها» وكأنما أعّدت لتداهم وكرًا لعصابة خطيرة. لا شلة من العرب إجتمعت ذات ليلة لتبّدد عزلتها فى جو حميمى يعيد إليها جزءًا من عالمها الدافىء المفقود.

والعرب هنا يفتقدون لغة الحنان من قاموسهم الحياتى. ولغة الحب تصير قديمة عفا عنها الزمن، فالتعارف والصداقة لا تؤدى

إلى طريق الحب المرسوم بالأحلام كما فى القصص الرومانسية التى كنا نقرأها فى أيام المراهقة. إنها لغة علاقة مدروسة ومرسومة كل طرف منها يبحث عن مصلحته فى الطرف الآخر. لذلك خرجت الإعلانات المبّوبة فى الصحف الفرنسية «لانوفيل - أوبسرفاتور»، «فرانس سوار» «ليبراسيون» وغيرها لتخصصّ مساحات كبيرة للتعارف وتقريب الناس إلى بعض من خلال وكالات متخصصة بالزواج والصداقة والعلاقات العابرة، وكلّها تنتهى بجمع مصيرين أو على الأقل بتبادل الكلام.. أو الحب فى مجتمع لا يجد وقتًا للبحث عن شريك أو شريكة. ولائحة طالبى الحياة الاجتماعية بالواسطة طويلة تمتد من الجديين الباحثين عن علاقة طويلة ومشتركة كالصداقة أو علاقة زوجية إلى المهووسين جنسيًا والشاذين إلى «الدون جوانين» المغامرين إلى هواة طق الحنك.

وتضيع الوقت بتسلية عابرة وذكرى سريعة وتقرأ من الأسماء بعض العرب الذين إستهوتهم فكرة إيجاد صديقة شقراء، حلوة، أو رغبة بإقامة علاقة مع فرنسية وحيدة دون أى شروط أو مواصفات تصل به إلى الزواج وتقدم له الجنسية الفرنسية على طبق من ذهب.. يستفيد منها فى السفر والإقامة والعمل.

حياة تبدأ بمصالح وتنتهى بمصالح. العواطف صارت ميكانيكية خاضعة للعرض والطلب كأية سلعة.. عقلك وحده يهديك إلى الطريق.. أما القلب فهو بضاعة مستهلكة والعاطفة يبحث عنها الفرنسى عند العرافين والعرافات التى تملأ إعلاناتهم الصحف

والمجلات.. فمن شفتى العراف ربما تستعلم عن حب قادم.. سيطرق الباب على إستحياء ويحى القلب الجامد الذى وضع داخل ثلاجة هذه الحضارة المدنية.

لكن فى باريس ينبض قلب آخر يشدّنا إليه بدقاته الناعمة فتركض وتختار انائها الفكرى المتجدد.. دنيا مفتوحة للفنّ والثقافة من كل الاتجاهات، متحف ومسرح ومكتبة.. وآثار ومعارض وحفلات موسيقية. نعيش داخلها مبهورين نتعلم لذة الاكتشاف ومغامرة البحث. وفى باريس أعرف نفسى وإمكانياتى.. وكما يقول «سقراط».. لتعرف نفسك بنفسك، وتكتشف كم تساوى فى الميزان، ميزان الحضارة والثقافة والوعى. تكشف قدرتك فى التأثير على الناس تمامًا كما أراد الموسيقار «فاغنر» عندما عرف نفسه كم يساوى فى ميزان الفّن والموهبة وعمره ٤٧ عامًا، وكأنما لم يولد إلا فى ذلك اليوم نفسه وأنا أحاول أن أتعلم وأبحث، واكتشف فى بواطن باريس وأسرارها.. ما يجعلنى أشعر بلحظة ولادة حقيقية لذاتى.. عندما أشعر إنى وصلت إلى نقطة المعرفة.. ولحظة البداية مع إبداع أدبى انتظر أن يطل فى عالمى كبرعم ينفتح وينشر اريجه العطر باتجاه نسائم الوطن البعيد.

رمضان فى باريس

رمضــان كـريم.. قـادم إلى غـربتنا، يقـرع أبوابنا على استحيـاء. يلامس روحنا الهـائمـة هنا فى الاغتـراب. ويحـاول أن يعيـدها إلى نقائها الحقيقى.

نحن كعرب، نتلاشى فى زحام المدن الغربية. نضيع فى صخبها وماديتها وإغراءاتها فى ترفها المكسو بالمساحيق والاصباغ. ابحث عن وجه رمضان الوديع الذى عرفته فى بلدى مضيئًا، مطلاً مآذن تشرئب باعناقها نحو السماء يصدح فى جنباتها التكبير والتواشيح ونداء الصلاة حتى الصباح. هذا الصوت الذى ينهمر من أعماق الروح والوجدان يبعث فى الجسد رعشة الإيمان. ابحث عن أجواء رمضانية عرفتها فى القاهرة وتونس والمغرب ودمشق وبلدى الصغير اللاذقية. فلا أجد إلا لمسة حزينة.. شاحبة فى بيت

عربى.. أو فى أزقة وضواحى باريسية بعيدة يسكنها العمّال المغاربة الذين يعيشون فى تجمعات صغيرة يحملون معهم تقاليدهم وخصوصيتهم. حتى إن العابر فى هذه المنطقة قد يشم رائحة الطعام الطّيب بالتوابل والهريسة من على بعد أمتار كثيرة. فتعرف إن صاحب هذا البيت من تونس أو المغرب أو الجزائر. تستيقظ فى ذاكرتى ملامح رمضان التى تتوهج فى القلب كلما سمعت آذان المغرب. فأذكر مائدة الأهل العامرة بأطايب الطعام.

شراب قمر الدين، أو اللبن الرائب يتصدر المائدة وبائع العرقسوس بإيقاع طاساته المعدنية يجعلنا نهرع إليه باباريقنا وادواتنا لنطفئ عطش الصيام بهذا الشراب اللذيذ الذى عرف كدواء لالف داء. وأصبح تقليدًا معروفًا من تقاليد رمضان عند أهل الشام. صوت المسحراتى فى الليل يخترق سكون الليل بوقع طبلته الرتيبة ونداءه «اصحى يانايم وحدّ الدايم» ويصحو الناس فى حارتنا على صوته كإنما هم على موعد معه.. تشتعل نوافذ الجيران بالأضواء. وتدب فى الحارة حركة غير عادية. وكأنما لامس المسّحراتى بعصاه السحرية هذا العالم النائم المستغرق بأحلامه والمسترخى فى النوم العميق بعد عشاء طيب وسهرة عامرة.

ابحث فى العتمة التى تخيم على منطقة (السان توان) المنطقة الاشتراكية.. تلك الناحية الباريسية المميزة بمدائنها وقصورها العتيقة والتى أسكن فيها منذ عدة سنوات عن أثر لهذا العالم الساحر المختزن فى ذاكرة الطفولة والصبا، فلا أجد إلا الفراغ

الكئيب والصمت الموحش وحدى مستيقظة.. ونافذتى تشرع أضواءها وسط العتمة.. إنما تتحدى كوابيس المدينة وغموضها الوحشى.

يذكرنى هذا بأننا كعرب. غرباء نعيش ونتنفس من رئة صناعية مختلفة، وتحاول بين حين وآخر أن نجدد اوكسجينها بسهرة حلوة مع الاصدقاء نجتمع حول مائدة عشاء طيبة، تحفل بأطباق شهية من مازات لبنانية «أو كسكس تونسى» أو طاجن مغربى من محاشى وكبه على الطريق السوّرية.. نستمتع بغناء شرقى ورقص وهيصة فرح.. وضحك ينبع من قلب ظمأن إلى التجدد.. يعيد إليه نبضه الخاص.

نجتمع شلة عرب من هنا وهناك لا حدود ولا فواصل.. لا سياسة ولا رقابة نجتمع بالفة العصافير نحلق مجموعة واحدة فى كل الاتجاهات وكإنما كل غابات الدنيا نملكها ونختارها طالما أننا نمتلك لغة واحدة.. تحطم كل حواجز الإنتماء. والغربة الصعبة أشعر فى أول يوم من رمضان ومحطة اذاعة الشرق تبث الأغانى الدينية، والتواشيح.. وتذكرنا بأننا اليوم على موعد مع شهر الصوم والبركة.

ابحث عن أجواء رمضانية عشتها فى حوارى الحسين فى مصر.. تلك التى تصطخب بالحياة فى مساءات هذا الشهر الكريم. أشرب الشاى فى مقهى الفيشاوى. واقراء الفاتحة فى مسجد السيدة زينب. بينما أصوات التكابير والتهاليل تهل من كل مكان

تختلط بأصوات الباعة الجوالين.. بأطفال صغار حملوا فوانيس رمضان.. بناس من هنا وهناك.. وأنا بينهم كسائحة غريبة اتلفت.. واختزن رؤيا جميلة وحارة بإيقاعها الإنسانى والدينى.

أعيش سهرات خاصة تمتد حتى الصباح فى سرادق نصب فى قلب الساحة يزخر برامج ترفيهية ودينية ترد الروح وتنبض فى القلب نشوة خاصة.

تركض ذاكرتى بإتجاه مدينة مراكش أجوب أحياءها.. وأعايش أجواءها الرمضانية الخاصة.. زحمة وضجيج وفرق شعبية تجوب الشوارع تغنى بايقاعات مغربية رائعة، تجعل الشارع يتحول إلى مسرح متنقل يتدفق بسحره الخاص فى أجواء شعبية هى ذاكرة الإنسان المغربى وتقاليده الممتدة إلى قرون طويلة من عمر الزمان.

وفى تونس. اذكر الأمسيات الرمضانية فى مقاهى (سيدى بوسعيد) التى تمتد منذ الفطور وحتى السحور. الناس يجلسون فى مقاهى رصيفية صفت كراسيها وطاولاتها الخشبية، فى الحوارى الضيقة إلى جانب بائعى الحلويات التونسية، والتحف الشرقية. ودكاكين الارتيزانا يشربون الشاى بالنعاع المحلى بالسكر وقطع الصنوبر. ويدخنون النارجيلة ويلعبون الطاولة أو الورق أو يستمعون إلى أغانى أم كلثوم وصليحة، وعلى الرياحى. وعليّه التونيسية يسترخون على المقاعد الخشبية. أصدقاء وعائلات واحباب.. بينما بائع الفُل والياسمين البلدى يطوف عليهم بعقود جميلة عطرة.

ابحث عن رمضان فى باريس فى وجوه الناس التى تركض فى اروقة المترو كإنما هى على موعد عاجل.. مع رحيل أو سفر مفاجىء. فلا أجد له أى أثر إلا فى وجهى المصفّر من التعب والجوع. اتجه إلى الدائرة الخامسة فى باريس قرب محطة مترو (جوسيو) هناك مسجد باريس الكبير يستريح ببنائه الشامخ بابّهة شرقية. وعمارة إسلامية عريقة فأرى تجمعات المسلمين هنا وهناك رجال ونساء وأطفال. باعة العطور والمسابح وكتب القرآن الكريم والبخور افترشوا الأرض يبحثون عن زبائنهم الذين جاؤوا المسجد أما للصلاة أو للقاء الأصدقاء قبل موعد الافطار أو حتى لسماع درس دينى من أحد ائمة المسجد أشعر بإنتمائى الحقيقى لهؤلاء الناس.. أقضى وقتًا طيبًا مع مسلمات حملن عشائهن إلى أحد قاعات المسجد ليتعشين جماعة فى محاولة لإعادة نوع من الصلات الإنسانية المفقودة.

أرى بينهن فرنسيات اعتنقن الإسلام. ويحاولن أن يقدمن أى نشاط يخدم قناعتهن الجديدة.

صديقتى (مليكة ديف)، هذا «اسمها الجديد» بعد أن أعلنت اعتناقها للدين الإسلامى رأيتها منهمكة بمساعدة بعض العاملات فى المسجد على تحضير طعام الافطار الذى يقدم كل مساء مجانًا للفقراء من الناس مسلمين أو غيرهم.

•

اركب المترو.. وأذهب باتجاه حى «بارياس».. فى منطقة (قطرة للذهب) التى تقع قرب تلّة (ساكريه كور) أو حى «موتمارتر

للرسامين».. رأيت الناس هنا .. وكأنما عايشتهم فى أحد المدن العربية التى زرتها ذات يوم فى الرباط أو تونس ملابس مغربية.. رائحة الطبيخ المميّز بنكهته الخاصة. توابل وبخور وجوه عربية سمراء. باعة أرصفة.. ومتجولون يعرضون بضاعتهم من المسابح والكتب الدينية صوت القرآن يمتزج بأغانى جزائرية. وأرى الناس على وجوهها تعب الصيام الطويل الذى يمتد حتى ساعة متأخرة من الليل.

فى منطقة «لوشابيل» أقضى نهارًا آخر.. أسلى صباحى بالتجول فى أسواق رمضانية خاصة تعرض المأكولات والحلويات الخاصة بهذا الشهر الكريم.

أشكال والوان من أنواع الخبز المحلّى بالسمن والعسل وحبَّة البركة. التمر واللوز والزبيب. لحم الحلال حلويات أشكالها مثيرة ومشهية تشبه حلويات بلادنا المقروظ، والغربية وحلوى اللوز صفت على صوانى نحاسية بأشكال بديعة تغرى الصائمين على تلوين مائدة الافطار بها.

مشاهد كثيرة أكتشفها وأنا أغوص فى أعماق باريس.. فى وجهها الآخر الذى ينضح فقرًا ومعاناة. هنا يعيش المهاجرون العرب وقد حملوا معهم تقاليدهم واعرافهم كإنما يهربون من قسوة الحياة المزيفة التى تحاصرهم بالغربة والعزلة إلى جو الإيمان والوحدة العائلية، يعيدون الروح إلى تقاليد بلادهم ويحاولوا تعليمها أو نقلها إلى الصغار من أبناء الجيل الثانى. أولادهم الذين فتحوا أعينهم فى موطن الهجرة والغربة.

ومع صوت آذان المغرب تغلق النوافذ المشّرعة وتجتمع العائلة حول مائدة الافطار يبتسمون وهم يتناولون حبات التمر وكأس الحليب أو اللبن.. لقيمات أولى بعد جوع طويل وصيام يمتد حتى العاشرة مساءً بعض الأحيان ومع المساء تبدأ سهرات الأنس والسمر، تمتد حتى وقت السحور. رقص وغناء واهازيج وزغاريد قد يقطعها صوت الهاتف من جيران تذمروا من الضجيج الذى أقلق راحتهم أو البوليس الذى يقرع الباب ويطلب من أصحاب السهرة بكل لطف وتهذيب الصمت وإحترام النائمين لأن من الممنوع الإعتداء على حرية الآخرين بأى نوع من الضجيج بعد الساعة الثانية عشر ليلاً.

ويتقوقع العرب مع أحلامهم. وقد أغمضوا العين عن متاعب يومية تجرفهم فى طاحونة الحياة والاغتراب. تسحق العمر وتبدد الروح. لكن رمضان الذى يأتى كل عام.. فى موعده المرتقب.. يدفىء الروح. ويعيد للإنسان العربى شيئًا من توازنه المفقود.

العودة إلى الطفولة
مع اسطورة بحر الرمال

فى زخم الحياة اليومية التى أعيشها فى باريس استنزف يومى فى الجرى وراء لقمة العيش، لاهثة مع قطيع البشر فى إياب ورواح فى اروقة المترو. نجرى كأننا نسابق الزمن. ونحرق العمر دون أن نجد فسحة صغيرة لسعادة عابرة أو لحظة تشرق علينا مثل شمس باريس البخيلة.

أنا شخصيًا أعشق عطلة نهاية الاسبوع واترقبها بفرح تلميذة صغيرة لأنها تغير من رتم الحياة اليومية ونظامها الدقيق. استيقظ بتكاسل.. وأشرب قهوتى الصباحية على مهل، لا أنظر إلى عقارب الساعة لأنها تقيدنى بأطر محدودة. كما لا أحب أن أفعل كما صديقاتى فى قضاء يوم العطلة فى عمليات تنظيف وطبخ وكوى

ملابس متراكمة، قد تجعل من هذا اليوم الثمين عبئًا مرهقًا أكثر منه عطلة لاستعادة التوازن النفسى المطلوب للاستمرار فى هذا النمط من الحياة الصعبة.

وأنا كل ويك اند كما يسمونه فى بلاد الغرب أحب أن أعيش كسائحة أو متشردة أو بوهيمية لا فرق. لاكتشف الجديد فى هذه المدينة المثيرة والمتجددة. وغالبًا ما أذهب إلى الحى اللاتينى أو مركز جورج بومبيدو. اتجول فى معارضه ومتاحفه واتابع ما يجرى من جنون وفنون على أرض ساحته الواسعة التى هى واحدة من أغرب نماذج المسرح العالمى الذى يفتقر إلى تقاليد واصول المسرح المعروفة كون عروضها عفوية تلقائية، وفرقها اناس هواة أو محترفين، أو عاشقين يحب الظهور، أو على الأقل متسولين للفلوس حتى عن طريق أظهار أحط المواهب أو أهمها لا فرق.

لكن هذا الاسبوع قررت أن اقضيه فى عالم الطفولة من حدائق ومدن تسليه لتحضير ريبورتاج خاص للصحيفة التى أعمل بها. وبنفس الوقت أجد فرصة للهروب من همومى الصغيرة التى تتراكم فى داخلى حتى تنذر لحظة ما بعاصفة قادمة.. من كأبه تكتم على نفسى.. ببكاء حار لا أدرى له سببًا، أو الحديث مع نفسى كانصاف المجانين.

كانت وجهتى التى إخترتها لجولتى الاسبوعية هى (مدينة بحر الرمال) أو بابا جاتو نسبة إلى اسم صاحبها. هذه المدينة التى تقع خارج باريس قرب مطار شارل ديغول والمخصصة للأطفال.. وللكبار الذين يحبون استعادة طفولتهم المفقودة.

بحر الرمال مدينة غريبة صاغها خيال عبقرى السيرك، واحد ممثلى التلفزيون الفرنسى جان ريشارد ليحقق للأطفال عالمًا اسطوريًا من الحلم والقرابة والتسلية.

وتسمية (بحر الرمال) لم تطلق جزافًا بل هى فعلاً مدينة مبنية على منطقة واسعة من الرمال الناعمة والكثبان الصغيرة تحيطها غابات كثيفة فتشكل من هذا التمازج الرائع بين الصحراء والغابة ما يغرى باستغلال المنطقة سياحيًا وماديًا. وقد ذكرتنى ببلادى التى تسكنها اساطير ألف ليلة.. وحكايات الصحراء وغموضها السحرى.

الدخول عبر بوابة هذه المدينة التى تشبه أسوار مدن قديمة كالقاهرة ومراكش ودمشق. يكلف أربعين فرنكًا للشخص الواحد لا فرق بين طفل وكبير فالجميع ما أن يدخلوا عتبة المدينة حتى يتحولوا إلى صغار يلهون ويتفرجون ناسين هموم الزمن ووطأة العمر الهارب. كل شىء حولهم مستباح ومجانى حتى تغلق بوابتها وينفض الحفل مع السابعة مساء. وأنا الصحفية الفضولية القادمة إلى هذا العالم الغريب أحمل إنبهارى بكل الأشياء الجميلة والمثيرة، افتش فى طفولتى البعيدة عن مدن غريبة من هذا النوع. عن العاب الكترونية.. عن حدائق تحمل للطفل متعة الاكتشاف واللعب. فلا أجد فى ذاكرتى إلاّ حكايات جدتى حول كانون الجمر فى ليالى الشتاء الباردة نتحلق حولها كقطط صغيرة تقذف لنا حبات القضامة والشوكولا والملبس.. فنتخاطفها بشقاوة.. ثم نجلس

صامتين وقد تعلقت عيوننا بشفاهها المتخضنة نسمع منها حكاية الفقير وبناته السبع. علاء الدين المصباح السحرى. سندباد ورحلاته البحرية. فنحلق فى الخيال. ونطير عبر البحار. وندخل الممالك ونتفرج على أسرار الملوك والاميرات. حتى تغمض عيوننا ويسرقنا النعاس. عند بوابة (بحر الرمال) أقدم الكارت الصحفى.. فأفاجئ بحرارة الاستقبال من المسؤول الذى يقودنى إلى المكتب الصحفى، ويضع أمامى ملف كامل فيه الصور والمعلومات واقتراح لطيف فى أن ترافقنى مضيفة مخصصة للصحفيين كى تفرجنى على هذه المدينة، وتشرح لى كل واردة وشاردة فيها. أشكر المسؤول وأطلب منه حرية التجول بمفردى مستعينة ببرنامج احتفالاتها وخريطة تحدد معالمها وتفاصيلها بكل دقة.

خطوات قليلة، وأجد نفسى أمام محطة قطار عتيقة تذكرنى بعشقى المحموم للسفر استقل قطارًا هرمًا شبيه بما رأيته فى أفلام الوسترن ورعاة البقر.

ينطلق متهاديا عبر مساحات الرمل ليحملنا إلى مدينة محصنة بقلاع عالية وأسوار تحيطها من كل جانب وحارس يقف فى أعلى القلعة يلوح بعلم ملون بأن ندخلها بسلام أمنين دون تأشيرة دخول أو بطاقة سفر. هذه المدينة التى صاغتها عبقرية «جان ريشارد» تسمى بابا جاتو كل سكانها من الدمى المتحركة بالخيوط وآخر صراعات التكنولوجيا الحديثة، حتى ليتصور الإنسان إنه أمام بشر حقيقيين من لحم ودم الفارق بيننا هو أننا نحمل فى داخلنا مشاعر وأحاسيس وهموم بينما هم يعيشون من دم التكنولوجيا، ويبدون عنا

وحشة الأيام وضيق الصدر فى بابا جاتو.. أزقة ومبانى وأسواق تشاهد فيها حركة الحياة اليومية. ففى السوق يطالعنى جزار يقطع اللحم وزبونه تنظر دورها. بائع خضار يزن الفواكه وحداد يقوم بعمله بهمة ونشاط مع صبيه الصغير.. دمى تغسل الثياب فى النهر بينما طفل شقى يلهو على الجسر بعقرب صغير يخيف بها النساء المنهكات فى عملهن. دمية تلعب مع صديقتها الجولف. وجدة عجوز جلست على شرفتها تغزل الصوف وتراقب بفضول جارتها الشابه التى تنفض السجادة على البلكونة الصغيرة.. ونحن البشر المشاهدين نتحرك بلا خيوط.. ونتحول نحن الكبار الجادين إلى أطفال مبهورين بشخوص «بابا جاتو» سكان القرية الحلم والخيال والإبداع الغنى وذلك الخيال الخصب الذى يفتح أمام الطفل عالم المعرفة والتسلية ليكون حياته ومستقبله بشكل منطقى مدروس أخرج من هذه الدوامة التى تلفنى بعيشتها، على صوت المذيع يعلن عبر الميكرفون عن استعراض كاوبوى حى سيتم فى أحد أحياء المنطقة التى شيدت على طراز هوليودى.. البيوت الخشبية، حظيرة الثيران والخيول والحانه والازقة والبنك ومركز الشريف ومخزن لبيع كل ملبوسات الكوبوى الاميركى.

إنطلق مع الناس إلى المنطقة المحددة. فجأة نصير نحن المتفرجون فى دوامة الحدث ونقتحم فى اللعبة حتى آخرها.

الشريف يقتحم ساحة القرية مع رجاله المسلحين ويصطدم بمعركة حامية مع اللصوص تستعمل فيها المسدسات الشبه

حقيقية. ومع طلقات الرصاص وإختلاط الدخان بالتراب ورائحة البارود وجثث الموتى الملقية هنا وهناك أعيش حالة ذهول كأنى أرى حقيقة بعينى وليس تمثيلاً يقرب الحقيقة وينتهى المشهد بتصفيق الجمهور وهتاف الأطفال ويخرج الشريف على حصانه الأبيض مزهوا بانتصاره بينما يقوم ضحاياه من رقادهم اللحظوى ليردوا على تحية الجمهور المصفق والمشجع.

واتابع الرحيل فى هذه المدينة.. أركض كالأطفال أصورهم يركبون طائرات تحلق على ارتفاعات صغيرة، يتسابقون بسيارات صغيرة أو مراكب مائية تسقط من على، أدخل حجرة المرايا المقعرة. أضحك على شكلى وهو يتحول قزمًا أو بقامة ساحقة أو بحجم شجرة جميز. أرى وجهى تعبث به المرآة فيأخذ أشكالاً مرعبة ومضحكة. وأشعر أن المرآة أشبه برسام كاريكاتور محترف يداعب بريشته تفاصيلنا الدقيقة يكبرها ويصغرها فأهرب من المرآة خوفًا على نفسى من هذا الوجه البشع الذى يلاحقنى. وأدور بين لعبة وأخرى أشاطر الصغار فرحهم وأقف فى الطوابير أنتظر أن أركب سفينة أو سيارة سباق أو قطار سريع يندفع من على ليقذف قلوبنا خارج ابداننا خوفًا وهلعًا أضحك ملء فمى امام مهرج يقوم بألعاب بهلوانية وكوميدية وتدوى ضحكتى مجلجلة حتى أشعر للحظة أن خواصرى قد «فقعت» كما يقولون فى بلادى. ربما لأن مرارة الغربة غيبت الضحكة المجلجلة التى تخرج من القلب فى لحظة صفاء حقيقية هذه الضحكة التى كانت تدل على مكانى إذا ما إنطلقت منى. حتى أن الفنان الصديق دريد لحام سأله عنى

زميل صحفى فى أحد مهرجانات قرطاج السينمائية فهمس له قائلاً: هل سمعت ضحكة هدى فى الفندق! إذا لم تسمع فإنها من المؤكد ليست هنا..

وفى مدينة «بحر الرمال» أستعيد براءتى وعفويتى وأنطلق فى لحظة صدق وفرح قد لا أعيشها كثيرًا فى معمعة حياتى اليومية الصعبة التى يحتاج فيها الإنسان إلى صبر وبرودة أعصاب تعكس القلق والهم اليومى خاصة إذا ما استفتح نهارنا بفواتير تهز البدن، وتثير الأعصاب منذ الصباح الباكر. لا فتاح ياعليم أرى فى تجوالى مدنا وبلدانا تتجسم أمامى هنا وهناك تحمل خصوصيات بلدان بعيدة نسمع عنها.. فأدخل إليها بلا تأشيرة سفر ولا تقطيبة رجل البوليس واسئلته الاستفزازية التى يثير كوامنها جواز السفر العربى ومهنتى الصحفية التى تضعنى دائمًا فى خانة المشبوهين والمخرجين، فاتعرف فى مدينة بحر الرمال على المكسيك وايطاليا واليابان والصين ومجاهل افريقيا واتعشى فى سفينة عتيقة جراسينها من القراصنة الخطرين الذين قدموا لنا الطعام بعنف كانما هو العشاء الأخير. يسرقنى من دهشة السفر والترحال المذيع يعلن عن استعراض آخر مثير سوف تجرى أحداثه من منطقة الرمال بين رجال الشريف القادمين فى القطار وبين الهنود الحمر المهاجمين. فانتظر بفضول مع جمهور كبير ينتظر إعلان البرنامج حين تأتى أصوات الهنود الحمر العنيفة ونراهم على جيادهم السريعة يقومون بحركات اكروبات خطرة.. بينما أحد الهنود على

حصانه الاشهب يجر أسيرًا مربوطًا بالحبال ويتخبط على الرمال مثيرًا صراخنا وشفقتنا على «وقعته السوداء» ونعيش لحظة هجوم الهنود على القطار الذى يأتى متهاديًا بما حمل من رجال ومال.. وبين الحقيقة والخيال. فأقفز وانط مشجعة اصفق وأصفر حتى ينتهى هذا الاستعراض المثير وكأنه مسرح فى الهواء الطلق يختلط فيه الممثلون بالجمهور ويضيع الوهم مع الحقيقة.

أرتاح قليلاً مع فنجان القهوة العربية عند بوابة مراكش.. هنا جزء من المغرب. أسوار مراكش وساحة الفنار. رائحة الكسكسى تمتزج مع رائحة الشواء.. جمل الصحراء يقف أمام عشرات المشاهدين من الصغار والكبار يلامسونه ويتحسسون على وبره الخشن كأن فيه العجب. فهذا الكائن الحيوانى الصبور «جمل الصحراء» يستثير خيال الإنسان الأوروبى لأنه يذكره بالشرق وغموض الصحراء وقصص المغامرين فى حكايات ألف ليلة.

وتأتى المضيفات المغربيات بملابسهن الجميلة، القفطان المذهب والجلابية المفضضة. يتجولن على رواد المكان بكؤوس الشاى بالنعناع ويتحركون بليونه ورشاقة على وقع موسيقى مغربية حارة يستكين فيها الزائر للحظات بين أحضان الشرق ودفئة وإغراءه.

وتركض عقارب الساعة.. كأنما تختصر لحظة الحلم.. يودعنا المذيع على أمل لقاء قريب.. أعود إدراجى إلى الواقع.. مواعيد العمل الصباحية التعب اليومى.. الركض فى أروقة المترو.. الأكل فى المطاعم الرخيصة. أو السريعة (الفاست فود) لكن تبقى

ذكريات هذا النهار تملأ قلبى بإنتعاشة ناعمة. تبدد بعض الغيوم الصغيرة، وتريح الذاكرة من لهاثها اليومى.

لكن ما يؤلمنى أن أطفالنا العرب الذين يأتون إلى باريس مع أهاليهم لا يعرفون منها إلا شارع الشانزليزيه وحى الأوبرا يركضون مع آبائهم بين مخزن وبوتيك بحثًا عن صرعات الموضة وحمى الشراء دون أن تتاح لهم فرصة التعرف على هذه العوالم الغنية بالمعرفة والتسلية لأن شهوات الشراء عند آبائهم تفوق طموحاتهم الصغيرة فى أن يتعرفوا إلى سياحة الطفل فى باريس عبر مدن الملاهى وحدائق الحيوانات ومدن مخصصة لهم إبتدعتها عقول متخصصة، ومبدعة سخرت كل وسائل العلم والتكنولوجيا من أجل خلق طفل سليم يملك خيالاً واسعًا ومعلومات كبيرة وتسلية مفيدة. ففى ميرابوليس وحدائق استرليكس وعالم باباجاتو ومتحف لافلييت وحديقة النباتات ومتحف الأسماك. ما يغنى عن عشرات الكتب ومئات البرامج التلفزيونية والاذاعية لأن فيها العلم، والترفيه أجواء المتعة ما يجعل الطفل الغربى بألف خير.. ولطفلنا العربى الرحمة على مصيره وواقعه السيىء الذى يسرق منه الطفولة والبراءة ليضعه فى خانة المعذبين منذ الصغر.

مقاهى باريس..
ألفة الروح وذاكرة المدينة

خريف باريس الشاحب أعاد لقلبى نبضاته، فانتفض كعصفور مبلل الريش بالمطر أتطلع إلى الأشجار التى تحاور بألوانها شمس المغيب وأذكر أيام الرحيل عبر مدن ضبابية باردة كانت بالنسبة لى محطات للعمر وتجدد التجربة. برلين تتدفق فى ذاكرتى مشبعة برائحة الغابات والورق الأصفر عندما كنت أدرس فى جامعة برلين الدولية مع شلة من الصحفيين جاؤوا من أقصى بلاد العالم، ليتعلموا من تجربة الألمان فى حقل صحافة الطفل كم كنت أتسكع فى غاباتها اللا محدودة فى كل الاتجاهات. أجمع أغصان الأشجار وانسقها فى غرفتى الصغيرة لتحمل لى نسمة الخريف، وجوه الناعم المتميز اركض فى اتجاه شوارعها الرئيسية ابحث فى

ساحاتها العريقة عن مقهى.. لا دفأ حلقى بفنجان قهوة أو شاى لا فرق طالما أن قهوة الألمان ذات مذاق خاص كمزاجهم.. فأجد نفسى فى طوابير من الناس تنظم دورها بلهفة كى تحظى بكرسى فارغ بين مجموعة من الناس أو مع إنسان ما.. لا يهمه وجودى أو وجود غيرى على طاولته طالما أنه ينفرد لنفسه بفنجان الشاى وقطعة الكيك اللذيذة أو (أيس كريم) الذين ترفع فوقه طبقات من الكريما واضطر أن أفعل كما يفعل الآخرون اشرب قهوتى على عجل.. وأتأمل الناس الذين ينظرون باتجاه طاولتى بفضول متعمد كأنما يقولون لى «كفاك جلوسًا فهناك من ينتظر دوره» واشعر بالحرج، فاضطر أن أسلق حلقى وأنا أرشف قهوتى بسرعة، وأجمع اشيائى راكضة باتجاه الباب بينما يركض إنسان ما نحو طاولتى وكأنما خطى بمكان فى الجنة الموعودة.

أما «لندن» فيذكرنى الخريف بضبابها البارد ولياليها الموحشة تلك التى جعلتنى ابحث بلهفة عن موعد السفر الذى تأجل أكثر من مرة بسبب انشغال الطائرات الذاهبة إلى باريس بفريق كرة القدم البريطانى والمشجعين والمتحمسين الذين رافقوا فريقهم الرياضى الذى سيدخل مبارة حامية الوطيس مع اقرانه الفرنسيين.

أبحث عن متعة الانبهار فى شوارعها الواسعة النظيفة.. فى ساحاتها التى تموج بالناس. فى باراتها ومطاعمها . فلا أشعر إلا بوحدة تثقل قلبى فاضطر إلى العودة للفندق المتواضع متخذة

من جهاز التلفزيون رفيق الليلة حتى أنكفأ فى نومى تعبة من الركض بين الهايدبارك وساحة البكادللى. وقصر الملكة اليزابيث ومتحف لندن وأسواقها العريقة الفخمة مثل سوق هارولد وغيره.

واحن فى هذه الليالى الموحشة لمقاهى باريس لارصفتها ولياليها المجنونة الصاخبة، لشتاءاتها التى لها مذاق خاص ومتميز عندما تتفرج على العابرون تحت المطر بمظلاتهم الملونة. وأنت غارق فى كرسى المقهى الوثير الدافىء تتمتع بجلسة ناعمة مع الموسيقى وجرائد اليوم العربية منها والفرنسية.

وأنا فى برلين ولندن وروما لم أجد الا بارات صاخبة تسدل ستائرها على روادها كأنما تحميهم من العيون الفضولية أو تحمى العابرون منهم هذه البارات يسمونها فى لندن «البوب» فيها يسكر الزبائن بكؤوس البيرة الضخمة التى تكفى لقتل جمل أو فيل.. وبين موسيقى يعزفها رجل عجوز على البيانو يستعيد منها أغانى قديمة من ذاكرة الماضى لفرانك سيناترا وناينتل غيل.. أحاول أن انسجم مع هذه الأجواء التى ادور فى دوامتها بلا اختيار أو اهرب منها إلى جو لندن الضبابى أو برلين المثلج أو روما الماطر الحار بأنفاس الطليان وعصبيتهم وصوتهم المرتفع فى كل مقهى.. وكأنما يتحدثون مع الجميع وأقول لنفسى أين منها مقاهى باريس العريقة الهادئة والتى تقع فى كل شارع وحى وحتى أنه يقال.. فى باريس بين كل مقهى ومقهى يوجد دائمًا مقهى آخر وأنا لا اتعب فى اختيار المقاهى الهادئة ذات الأجواء الناعمة التى تحملنى

لحظات إلى التأمل العميق أو الحوار مع نفسى، أو كتابة مقالتى وخواطرى أو مراجعة فواتير البنك وحساباتى بين حسابات دائنة ومدينة.

ومقاهى باريس هى جزء من ذاكرة المدينة.. جزء من تاريخها وعراقتها وثقافة شعبها وتقاليده. منها خرجت مدارس الشعر والأدب والفن من رسم وموسيقى ومسرح.. ومنها انطلقت بوادر الحركات الفكرية التى طبعت باريس بطابعها الخاص كمدينة للثقافات والعلوم والفن العالمى..

فى مقهى الديماغو فى منطقة السان جرمان أحاول أن استعيد من طاولاتها وديكورها الكلاسيكى الأنيق تاريخ طويل من تيارات ثقافية وفكرية وأسماء لكبار الفنانين والأدباء الذين تخرجوا من هذا المقهى الذى كان بمثابة صالون أدبى تعقد فيه اللقاءات والحوارات، وتخرج من أجواءهم الابداعات العالمية. أشعر أن جان بول سارتر الذى كتب القسم الأكبر من أعماله فى هذا المقهى بأن أنفاسه لا تزال ترف فى المكان أو أنه سيطل بعد قليل من باب المقهى ليتجه نحو طاولته مع رفيقة عمره ودربه سمون دو بوفوار ليفتح أوراقه أو حواراته الأدبية.

بين منطقة مونبارناس والسان جرمان وحى مونمارتر الشهير تتوزع المقاهى التى شهدت منذ أواسط القرن الثامن عشر ولادة أدباء وتيارات فكرية أثرت على الحركة الأدبية والاجتماعية فى فرنسا والعالم. ففيها ولدت السوريالية عندما كان بيكاسو يمضى

معظم أوقاته فى مقهى «الكوبول» فى منطقة المونبارناس أو مقهى الفلور والديماغو فى حى السان جرمان قرب أعرق جامعات الدنيا «السوربون» ومن العظماء الذين عاشوا وتخرجوا فى هذه المقاهى «الشاعر الكبير أبوليفير وماكس جاكوب وكوكتو وبراك وجان بول سارتر وسيمون بوفوار وهيمنجواى»وغيرهم. ومن أدبائنا العرب طه حسين وتوفيق الحكيم ولويس عوض وعبدالرحمن بدوى ومحمد مندور وسهيل أدريس الذى كتب إحدى رواياته «الحى اللاتينى» عن ذكرياته فى باريس مع مقاهيها وبناتها وتفاصيلها اليومية.

كلهم لهم مع المقاهى الباريسية صلة مودة وحب حتى ان هناك مقهى متواضع فى الحى اللاتينى بجوار السوربون يؤمه الفيتناميون لان زعيمهم الفيتنامى «هو شىء منه»كان يعمل فى بداية حياته خادمًا فيه وكتب بين جدرانه الباردة فصولاً من نظرياته السياسية الهامة.

وها أنا أبحث بدورى عن مقهى عريق يفتح قابليتى للكتابة مثلما فتحها مع غيرى أجلس على نفس طاولة طه حسين أعد أوراقى ابعثرها على الطاولة واحاول لملمة الأفكار الضالة فى رأسى لتتخذ طريقها السوى نحو الورقة. متخيلة أن روح طه حسين تحلق فى المكان وتضفى على جو من الابداع والكتابة.

ولكن ها هو صديق قادم يتجه نحو طاولتى.. وكأنه على موعد مسبق معى هو أيضًا جاء إلى المقهى يبحث عن رفيق يحادثه، أو

لحظات يتأمل فيها العابرات الشقراوات من بنات العم سام اللواتى يتسكن فى هذا الحى التاريخى بملابسهن القصيرة، فى تنانيره الشورت أو بنطلونات الجينز الضيقة التى تظهر أكثر مما تخفى وبين أهلاً وسهلاً وسؤال عن الحال والأحوال عن الصحة والعمل وطقس باريس.. ثم ينقلب الأمر إلى نميمة وشتيمة أو حوار جاد حول أهم قضايا الساعة. ثم يتدخل صديق آخر كان قد تواعد مع صديقنا العابر. وتصبح الطاولة بعد لحظات تمتلأ بروادها والحديث يطول ويتشعب وترتفع حمى الحوار السياسى مع ارتفاع اصواتنا ومع حركاتنا الكثيرة التى نستخدم فيها كل عضلات الجسم وتفاصيله.. ومسكين فلان أو فلتان من الذين تطالهم جلسات النميمة المرة التى تذكرنى بجلسات النسوة العاطلات عن العمل واللواتى يتخذن من مجالسهن فرصة لتعرية الناس وفضحهم، وكم اكرهها من مجالس واتحاشاها قدر الإمكان خصوصًا ونحن كعرب نتحلى بهذه الصفة حتى لو عشنا فى آخر الدنيا، فللأسف هناك كثيرون من العرب رغم أنهم يعيشون فى أوربا إلا أنهم يصرون على حمل سلبياتهم وتخلفهم معهم إلى أى مكان. فتراهم يجلسون فى حلقات النميمة لا يتركون سيرة فلان أو فلتان إلا ويتناولونها بالمدح والذم. والمقاهى هى أفضل مكان تعقد فيه مثل هذه الجلسات التى تعتبر مضيعة للوقت، وتسىء إلى الكثير ممن يصيبهم نصيب من هذه الاجتماعات العربية الصميمة.

المهم بعد أن أحسست أن جلستنا قد أصبحت تطال سيرة فلانه من الناس بطريقة تثير المشاعر وتبعث الالم وجدت نفسى الملم

أوراقى وأفكارى وأدفع الحساب لثلاثة أشخاص فضلوا تناول البيرة المثلجة عن فنجان القهوة الرخيص نسبيًا والذى أفضل احتساءه على أقل من مهلى حتى تتاح لى جلسة أطول دون أن ادفع ثمن اكثر من طلب أو اضطر إلى بعثرة ميزانيتى المتواضعة على طاولات المقاهى والتى أصبحت ضرورية فى حياتنا سواء للراحة أو للمواعيد السريعة أو تناول الغداء البسيط الذى هو فى الغالب أومليت (بيض مقلى) أو سلطة مشكلة أو سندويش متواضع.

أخرج متأخرة وأنا اتعثر بخيبة الأمل بعد أن أهدرت ساعات مجانية فى حوار بلا طعم ولا معنى سوى تضييع الوقت والتسلية بحديث عابر مع أى كان بلا هدف ولا مبرر.

وأسأل نفسى كيف استطاع المبدعون أن يصبوا أفكارهم أمام مثل هذه المواقف المفاجئة من زوار لا نتوقعهم ، بل ينبتون بيننا كالفطر وقد لا نتخلص منهم إلا بصعوبة وشق النفس. خصوصًا وأن تواجد العرب فى المقاهى أصبح شائعًا، خصوصًا فى مقاهى الشانزليزية العريقة التى تتوزع على مدى الشارع من ساحة الايتوال وحتى الكونكورد نراهم فى مقهى الفوكيت الغالى الثمن أو دوباريس ودوفيل وكوليزيه ونيوستار وغيرهم يتواعدون فيها أو يعقدون صفقاتهم التجارية وأحيانًا «المريبة منها يدلون فى كل الأمور الحب والجنس السياسة والاقتصاد والثقافة يقرأون جرائدهم العربية.. أو يتأملون العابرات الجميلات وقد يصطدن واحدة من اللواتى يبحثن عن صيد ثمين فى هذه المقاهى التى

يجلس فيها رجال الأعمال وأغنياء الحرب.. وتجار الصفقات والسماسرة، أمراء وصعاليك.. نجوم من السينما والتلفزيون والغناء.

يجلسون فى أيام الربيع والصيف فى التراسات المعدة على الأرصفة لينعموا بدفء شمس بخيلة تعيد لذاكرتهم شمس بلادهم الحارة. والمقاهى فى معظمها تتحول إلى مطاعم فترة الغداء فترفض استقبال زبائنها الذى يطلبون المشروبات فقط وتقتصر على زبائن الغذاء. لان فترة الظهر هى الفترة الذهبية للكسب السريع فمعظم الفرنسيون والأجانب يتغدون فى هذه المقاهى على الواقف أو الجالس، وإذا أنعم الله عليهم بغداء رسمى على طاولة فرشت بمفرش انيق وتحولت بقدرة قادر إلى طاولة للطعام لا للتأمل وشرب القهوة بفرنكات قليلة فإنه لا شك سيدفع فى النهاية فاتورة باهظة تجعله يتمنى لو أنه غض النظر عن متعة الجلوس فى المقهى المفضل فى لحظة غير مناسبة.

وفى المساء وخصوصًا فى الليالى الصيفية أو الربيعية الدافئة نجد أن مقاهى الأرصفة قد تحولت إلى مسارح فى الهواء الطلق، حيث يبدأ الهواة والمحترفون بإقامة استعراضاتهم العفوية أمام جمهور من زبائن المقهى المسترخين بلا مبالاة على مقاعدهم حيث تبرز فنون للاعبى الخفة والبهلوانات والموسيقيين والراقصين والممثلين. وفى نهاية اللعبة يدورون بقبعاتهم على المتفرجين ليضعوا فيها فرنكات قليلة مقابل فرجة مجانية قد يكون فيها من المتعة

والموهبة ما يفوق بعض الأحيان ما يقدم على خشبات المسارح. إضافة إلى أنها تتيح للناس فرجة على فنون الدنيا. حيث يقدم أمامهم الفن من افريقيا وأميركا الجنوبية وبلاد العرب والهند والسند وجزر المارتينيك والواق الواق.

وكلها عروض تتوالى أمام رواد المقهى الذين تفرجوا بدون تذكرة سفر ولا ملابس رسمية. تذوقوا بوقت قصير من فنون الدنيا وأعاجيبها ما لا يخطر على بال ومقابل فرنكات قليلة يعيش عليها هؤلاء الفنانين الصعاليك الذى الفوا الشوارع ومحطات المترو كما تألف القطط المشردة أزقتنا العتيقة.

اركض مع كل صباح الأحد «يوم العطلة الرسمية» إلى مقهى كلونى الذى يتربع على مفرق السان جرمان والسان ميشيل مقابل السوربون أعرق جامعات الدنيا فى طابقها الثانى وترى المثقف والطالب قد انهمك مع أوراقه وكتبه بمراجعة بحثه أو كتابه مقالة إذا كان من الممتهنين لمهنة المتاعب وفى الطابق الأرضى نراهم فى جماعات يتبالون أخبار الوطن.. ويتداولون فى قضايا الشرق الأوسط الساخنة دومًا، يتحاورون ويتجادلون بينهم اليمينى واليسارى الماركسى واللا منتمى. وهم غالبا يتناقشون بصوت عال مثير للانتباه دون أن يأبهوا لنظرات جيرانهم من الفرنسيين الذين تزعجهم تلك الصفة الغير مستحبة فينا وخصوصًا انهم لا يفهمون لغتنا العربية ولا يستطيعون التقاط بعض الكلمات بفضول متعمد الا أنهم أبناء الفرنجة إذا ما اجتمعوا على طاولة طعام تراهم

وكأنهم فى حمام مقطوعة مياهه، يثرثرون بصوت عال، ويتبادلون الانخاب النبيذية وهم فى أشد حالات النشوة والمرح. وكأن الطعام بالنسبة لهم اهم متعة فى الوجود.

ومقاهى باريس تتنوع بالنسبة لى شخصيًا حسب مكان العمل أو السكن فقد تنقلت فى معظم مقاهى الشانزليزيه على مدى ست سنوات متتالية عندما كنت أعمل فى مكتب انبق فى هذا الشارع المعروف. لذلك كنت اضطر إلى الغداء والعشاء وتناول القهوة مع ضيوفى واصدقائى وصديقاتى حتى ان مقهى الكاسكاد فى طابقه الثانى كان يعتبر بالنسبة لى ملاذا استكين فيه أتأمل من خلال زجاجة العابرين والمتسكعين. وأحياناً اكتب فيه مقالاتى وتأملاتى.. أو اضرب فيه مواعيد صحفية تحتاج إلى الهدوء وخلوة العمل لذلك صرت واحدة من الزبونات المعروفات اللواتى يحظين بمكانة لائقة بالنسية للنادل الذى يهرع ليقدم لى قهوتى دون أن اطلبها وكأنه يعرف سلفًا أننى لن اغير طلباتى.. وأن فعلتها صدفة فأنها تثير لديه العجب. فيقلب شفتيه دهشة ويهرع لاحضارها لى على عجل قبل أن اغير رأى.

ومن الطريف بالأمر أن النادل كان يعرف صديقاتى المقربات لذلك كان يقوم بدور السكرتيرة فى اخبار الصديقة أننى لم احضر بعد، أو اضطررت للذهاب لسبب هام أو يطلب منها الانتظار إذا ما اخبرته بذلك شخصيًا.

وها انذا اغير المكان بتغير العمل إلى المنطقة السادسة عشر العريقة منطقة سيكن الموسرين والاثرياء حيث فاقت اسعار

المشروبات اسعار الشانزليزيه فارتفع ثمن فنجان القهوة إلى الضعف وصار ثمن طبق الصلطة بسعر وجبة شهية فى حى شعبى أو منطقة نائية من مناطق باريس.

وليس هناك أشطر من الفرنسيين فى استنزاف جيبك ومدخراتك لذلك من الصعب جدا تطبيق قول المثل الشعبى «خبى قرشك الأبيض لليوم الاسود» الآن الفرنك الأبيض يتبدد بسرعة الريح. ولا يبقى منه إلا رصيد متداع فى البنك، أو قد ينزل عن رقم الصفر لتنهال الانذارات البنكية تهدد بالويل ونضطر إلى الاستدانة وترقيع الحالة من هنا وهناك ريثما يبدل الحال ويزول اليوم الأسود الذى يحل علينا ضيفاً كل شهر بمناسبة أو غير مناسبة. ها هى السنوات تركض ونحن نركض مثلها. يتسرب اليوم من اصابعنا كأنه الوهم تصبر الحياة تدور فى الملل والسأم نفس الأشياء.. الأمكنة.. الوجوه نطالعها كل يوم دون جديد ومثير عندما اشكو لصديقتى السورية التى تعيش فى دمشق حالتى.. ابتسمت مبتهجة ساخرة وقالت لى لا تبالغى فى النق والشكوى وأنت تعيشين عيشة نحلم بها.. يكفى أن تمشى فى شوارع باريس وأن تتفرجى على فتريناتها أن تشاهدى نهر السين وبرج ايفل. أن تجلسى فى مقاهى باريس وأنت تشعرين بالحرية، والانعتاق من عيون تتسلط حولك مثل الأضواء الكاشفة تتساءل بريبة وشك عن سبب جلستك هذه.. من تنتظرين ولماذا تجلسين فى مكان يؤمه الرجال ويحاط بالغموض والشك!!

وابتسم فى سرى اقول لنفسى: «لو تعرفى يا صديقتى كم عدد المرات التى تسكعت فيها فوق جسور نهر السين، كم حلمت وكم تأملت والآن لم اعد اشعر بحالة الانبهار التى كانت تنتابنى وأنا أتأمل انعكاس الأنوار الملونة على صفحته أو منظر القوارب الكبيرة (الباتو موش) وهى تعبر به حاملة السواح والحالمين عبر شرايين باريس العتيقة.

حتى برج ايفل بعد ان تلألأ بالاضواء.. بعناية عمدة باريس المخضرم جاك شيراك فانه لم يعد ايضا يثير فى ذاتى احاسيس الدهشة عندما اتأمله من فوق ساحة التريكاديرو أو أعبر فضاءاته التى توصل إلى الانفاليد، والجسور العريقة التى تعتبر كل واحدة منها تاريخا وحكاية مثيرة بحد ذاتها. اما احياء باريس العتيقة من جزيرة ستى أو الحى اللاتينى وازقة شاتلية التى كنت اعشق التسكع فيها خصوصا يومى العطلة الاسبوعية اتأمل معروضات الانتيكة، أو لوحات لفنانين مجهولين ومعروفين فصرت اتسكع فيها بلا روح ولا احساس بالفرح، والدهشة الغامضة التى تثير كوامنى بعشق الفن والجمال الذى أراه فى باريس كيفما تجولت فى فن العمارة وفى زخوفة الكنائس القديمة. فى الحدائق الوارفة التى تشكل رئة المدينة والتى تغرى بجلسة تأمل بين الازهار والاطيار واحواض المياه ونوافير وشلالات يتفننون بتصميمها لتكون متعة للناظرين.

آخر مرة زرت فيه الحى اللاتينى ومركز «بومبيدو» العالمى للثقافات كنت احاول ان استعيد احاسيسى بتفاصيل الاشياء التى

حولى، خصوصا فى ايام تمر قاحلة ملولة يسيطر فى اجواءها روح الروتين القاتل. منت اتجول تعبة.. وكأن الاحساس بالجمال قد سكن فى داخلى ميتا بلا حراك. حتى لوحات بيكاسو التى تتصدر قاعة الفن الحديث كانت باردة بلا نبض وتمنيت لحظتها ان تحملنى موجه عالية فوق هذا السكون الذى اغرق فيه وكأننى امرأة ميتة بحاجة إلى جمر ونار يتصاعد فى ذرى القلب حتى الحريق.

هذه هى باريس بعد سنوات من الغربة والالفة. اطل عليها من الطائرة وانا عائدة من تونس بعد اسبوعين من العمل والتغيير اراها خضراء مترامية خرافيه تغرينى بالجنون واقتطاف اللحظة الحلوة. بالعودة إلى اكتشاف غموضها الجميل المثير. لكنى ما ان اعيش فيها ضمن دوامة العمل والجرى اللاهث وراء لقمة العيش اشعر وكأن بينى وبينها الفة ملولة تشبه الفة الازواج بعد سنوات طويلة من الحياة المشتركة والعشرة التى تغرق فى دوامة المشكلات والهموم اليومية والاستغراق فى دوامة السكون البطىء المتعب.

وجوه فى باريس

وجه فى المقهى

فى المقهى الانيق فى شارع الشانزليزيه جلست وحدها تنتظر.. عيونها تلاحق الداخلين إليه، أو الخارجين منه.. تتراجع نظراتها كسيرة وهى تجد نفسها وحيدة ومعزولة عن دائرة اهتمام الآخرين. ورغم أنها تعرف نفسها «جميلة وملفتة لانظار الرجال» لكن الناس هنا كأنما حلت عليهم لعنة اللا مبالاة فأصبحوا كالدمى المتحركة فى هذا المقهى المترف.. منهم من جلس مع صديقته يتحدث بصوت خافت أو آخر انهمك فى حديث جاد مع صاحبه كأنما يعقد صفقة تجارية أو آخر استغرد بقراءة صحيفته. وكأنما هذا العالم لا يعنيه أبعد من حدود طاولته الضيقة.

صبت عيونها فى كل الاتجاهات وكأنما تبحث عن شىء ما أو تنتظر وجهًا يطل عليها فجأة فيبدد قلقها ووحدتها امتصت

سيجارتها بنزق. وتعمدت أن ترفع تنورتها القصيرة أكثر لتظهر ساقيها الجميلتين. رمت بنظراتها باتجاه رجل عربى الملامح جلس وحيدًا على طاولة منزوية يتصفح صحيفته دون أن يعنيه كل ما حوله. ربما هو الآخر تعب من ملاحقة الجميلات وتصديهن فى المقاهى أو الأندية الليلية ليقضى مع واحدة منهن سهرة عامرة حتى الصباح مقابل مبلغ من المال أو هدية لائقة وتنتهى الحكاية مع مطلع الصباح دون أن يعنيه معرفة اسمها أو عنوانها وقد ينسى شكل وجهها إذا ما صادفته فى شارع أو مكان. فهو ضيف فى باريس وهى امرأة عابرة ليس أكثر. لذلك جلس فى مقهاه المفضل مفضلاً قراءة الجريدة العربية وتفقد أحوال العالم وأخبار البورصة واحتساء فنجان قهوته بهدوء بعيدًا عن شباك العيون الجميلة التى تتصيد أمثاله لليلة عابرة يدفع فيها الكثير مقابل متعة. ينساها بسرعة وهو رغم أنه يكره مثل هذه العلاقات التى تنمو فى جنح الليل كالطحالب وتستنزف ماله ووقته. إلا أنه بتردده على باريس من أجل صفقاته التجارية لا يجد الوقت ليبحث عن صديقة حقيقية أو حب حقيقى. وإن وجد فتاة جميلة توسم فيها ذلك، يجد أنها من المرتزقات باجسادهن فى مهنة قديمة قدم التاريخ واصبح لها اليوم وأصبح لها اليوم قوانينها وأعرافها ونقاباتها. وتشرف عليها الحكومة وتنظمها بأطر وقوانين مثل أى مهنة أخرى، أما الفتيات اللواتى يجلسن فى المقاهى باشكال بريئة.. ووجوه خالية من المساحيق.. فتتصور انهن طالبات فى الجامعة لا أكثر.. لكنهن بسرعة يكشفن عن الجانب الآخر فى شخصيتهن عندما يطالبن

الرجل الذى يتعرف عليهن «بالمعلوم» يسترزقن من العلاقات العابرة بعيدًا عن عيون الحكومة الفرنسية والضرائب. معظمهن جاء إلى باريس هربا من فقر مدقع أو حياة اجتماعية مهشمه.. يبحث فى باريس عن الفردوس المفقود وعن كسب باسهل الطرق عبر سهرات حمراء.. أو علاقات هامشية، يعيش فى الضياع والالم وفى النهاية يجدن انفسهن منبوذات لفظهن الزمن فى مهاوى الخراب النفسى والجسمى. ويخرجن صفر اليدين بعد أن ينفقن فلوسهن فى الاناقة والماكياج والحياة اليومية الرغيدة (لزوم الشغل) ويجدن انفسهن فى النهاية يحملن على كاهلهن تعب العمر الذى انقضى بوهم كبير هو الفلوس والهدايا الفاخرة والسهرات المخملية. ويطلقن من الدنيا لا ولد ولا زوج أو حبيب أو بيت دافئ يستظللن به فى نهاية العمر.

طال جلوس الفتاة. شربت ثلاثة فناجين من القهوة ودخنت الكثير من السجائر. وبدت سحب القلق تحوم فى عينيها. حدقت من جديد باتجاه الرجل العربى الوحيد. تلاقت نظراتهما صدفة. ابتسمت له برقة متناهية فرد عليها باتسامة ود مجاملة وعاد إلى قراءة صحيفته من جديد. ومضى فى ذهنه خاطر سريع. هذا الوجه أين رآه من قبل! حاول أن يتذكر من بين لائحة الوجوه النسائية العديدة التى صادفها فى غزواته الليلية وسهراته العامرة هنا وهناك وفى النوادى الليلية العربية والفرنسية. وتساءل. هل كانت واحدة منهن فتاة عابرة على فراشه أم هى شئ مختلف. لكنه رأى فى عينيها دعوة صريحة للقاء أو حب. وهذا الوجه مختلف كل

الاختلاف عن الأخريات. فيه غموض ساحر وبراءة ناعمة تعكسها عيون سوداء لا تخفى سحابة حزن تمر كغيمة شفافة فى سماء صافية.

رشق الفتاة بنظرة متأملة وهى تتلهى بالنظر عبر زجاج المقهى تتأمل العابرين وتساءل بينه وبين نفسه هل يمكن لهذا الوجه الجميل الشفاف لفتاة لا تتعدى العشرين من العمر أن يرتدى قناع العهد والرخص فى مساءات باريس المشبوهة. إنها تذكره بحبيبته الاولى فى سنوات الجامعة. كانت حتما تشبهها فبعض التفاصيل الصغيرة العيون السوداء الواسعة والشعر الاسود الطويل الذى يسترسل على الظهر ببساطه وانوثة الوجه المربوع كوجوه الاطفال... نبض قلبه يحن إلى تلك الأيام البعيدة إلى الحب والانتظار واللهفة الممزوجة بقلق العاشقين، شعر للحظة قصيرة أنه رجل متعب يمتلئ بالهموم والمشاكل. وحياته بلا معنى ولا طعم. زوجة بليدة لا يهمها إلا اقتناء الملابس والمجوهرات وأولاد كبروا وصارت لهم حياتهم ومشاكلهم الخاصة. تجارة ناجحة وفلوس كثيرة فى البنوك الأوروبية. إلا أن أعماقه راكدة كبحيرات نسيها المطر والرياح فتحولت إلى مستنقع تتنامى فيه الطحالب والفطريات وتتناقص فيه روح الحياة والتجدد. نسى فى زحمة العمل والجرى اللاهث خلف الفلوس والصفقات معنى المغامرات والعشق الجنونى واحساس اللهفة والحلم حتى أصبحت سهراته المخملية الحمراء روتينية جافة لا تحرك كوامن القلب أو تشعل فتيله المطفأ منذ زمن بعيد..

تهد حزيناً وغمامة سوداء تعبر داخله. قرر أن يتعرف على هذه الفتاة، وأن يخوض معها مغامرة خاصة من نوع آخر. سيدعوها للتسكع فى الحى اللاتينى كالطلاب الفقراء أو سيحملها معه فى رحلة سفر إلى مكان ما يتعايش فيها مع لحظة جنونية ترتد به نحو مراهقة بعيدة.. نظر إليها نظرة خاصة تحمل دعوة حارة لا عجاب أو حب. ابتسم لها واشار إليها أن تأتى إلى طاولته. نظرة لا مبالية ومتجاهلة وأشاحت بوجهها نحو نافذة المقهى مستنكرة وكانما ليست هى التى ابتسمت له قبل لحظة واغرته بنظرات شقية تحمل أكثر من معنى.

استغرب تصرفها هذا. ولكنه قرر متابعة الجولة معها مهما كانت النتيجة. وكانما اعلن بينه وبين نفسه معركة التحدى الساخر. أخذ يناوشها بنظراته المحدقة حتى شعر للحظة أنه تحول بحركاته ونظراته وابتساماته البلهاء إلى رجل مضحك فقد اتزانه وهيبته خصوصا وإن معظم رواد المقهى والعاملين فيه يعرفونه كزبون دائم له أوقاته ومواعيده الدقيقة وهو لم يتصرف من قبل كما تصرف هذه الليلة بالذات.

تململت الفتاة وأخرجت حافظة نقودها ودفعت الحساب. عرف أنها ستغادر المقهى وعليه أن لا يفوت فرصته التعرف عليها. دفع حسابه بسرعة، وضع الفلوس على الطاولة دون أن ينظر مجئ النادل وهب واقفاً متأهباً لملاحقتها إلى أى مكان تتجه إليه.. متصورا.. بل متأكدا بأنها تنتظره فى الخارج.

توجهت الفتاة إلى شارع فرعى بسرعة نحو سيارتها الانيقة الفارهة وانطلقت تقودها تاركة اياه واقفًا على الرصيف متسمرا من المفاجأة والذهول، شعر بخيبة أمل بأنه اخطأ فى حساباته وتوقعاته وأحس أنه لم يعد يفرق بين فتاة الليل والمرأة العادية. فهى تبدو غنية موسره لا تحتاج إلى مال تسترزق به من بيع جسدها للعابرين وسيارتها البورش البيضاء تدل على أنها قد تكون ابنة رجل أعمال عربى يقيم فى هذا البلد منذ سنوات ويتخده مقرا لصفقاته واموره التجارية أو زوجة شابة لعجوز غنى. أو طالبة جامعية جاءت تطلب العلم فى هذه المدينة العريقة بعلومها وثقافتها.

توقف طويلا فى الشارع يفكر ويحلل ناسيًا نفسه ومواعيده ووقفته الغريبة تحت مطر باريس الناعم. أقلقه سؤال محير. من كانت تنتظر أو لماذا رمت بنظراتها تجاهه وابتسمت له ابتسامة حلوة لا تخلو من معنى. لماذا خصته بنظراتها، هل يمكن أن يكون لها أسلوبا خاصا فى استدراج الرجال. ولكن لو كان هذا صحيحا لكان من السهل اصطياده وهو قد ناوشها بنظراته وحركاته إلى درجة لفت انظار النادل فى المقهى ومعظم الجالسين فيه.

تساؤلات عديدة أرقته تلك الليلة حتى شعر أنه وحيد وحزين وليس لحياته أى طعم أو معنى. وإن كل ما كسبه من مال عبر كفاحه الطويل لم يمنحه طعم سعادة حقيقية. ودفء إنسانى

حقيقى بل فقد الكثير من قيمه واخلاقه وبساطته. واصبح يتقن المجاملات الاجتماعية الكاذبة. والكلام المنمق المعسول والتصرفات الدبلوماسية المحنكة حتى هو نفسه أصبح يقتنع بما يقوله حتى ولو كان كاذبًا وغير حقيقى.

قرر أن يبحث عن فتاته، وفى داخله فضول ملح فى أن يعرف من هى وماذا تفعل فى باريس هل هى عابرة أو مقيمة.. متزوجة أم عزباء.. طالبة أم عاملة.. اسئلة ملحة تطارده ووجهها الغامض المثير يغريه برحلة جنونية أو مغامرة عابثة تغير مجرى حياته.. وتنفض الركام عن كاهله اصبح يبحث عنها فى المقاهى والملاهى والارصفة يحملق فى السيارات العابرة بحثًا عن «بورش بيضاء» يحلم أن يجدها أمامه فجأة ولحظتها لن يتردد فى أن يفعل أى شئ من أجل أن يتعرف عليها. أحس أنه ضائع وقلق فى هذه المدينة الكبيرة وأن هذه الفتاة العابرة قد حركت سكون حياته بطرف اصبعها الصغير تركته يتعذب ولسان حاله يقول .. من اين خرجت ايتها الحورية السمراء.. هل أنت جنية طلعت من اسطورة منسية أم عروسة بحر لم تسطتع شباكى أن تأسرها.. لقد غيرت عالمى بنظرة عابرة وكأن نبض القلب قد خفق من جديد.. لؤلؤة ضاعت فى أعماق الماء وأنا الصياد العجوز الذى لم يعد يتقن مغامرة الغوص من أجل استردادك والحفاظ عليك أبدًا.

الغى كل صفقاته ومواعيده. وعندما صعد إلى سلم الطائرة

عـائدا إلـى بلده تمنى مـن كل قلبـه.. بل تضـرع إلى الله أن يـراها فجأة فى المقعد المجاور أو تكون أمامه فى أى زمـان أو مكان لتلغى قلقه وتسـاؤلاته الملحة المتعبه.. فـربما هـى ليست أكثـر من مغـامـرة يطمح لها قلبه ليتجدد نبضه وبلذة جديدة أو حكاية مختلفة.

مشروع زواج

لماذا قررت أن تتزوجه بمثل هذه السرعة! وهى التى هربت من أكثر من مشروع زواج وأصرت على التمسك بحريتها واستقلاليتها فى بلد كباريس يفتح أبوابه مشرعة أمام كل الاختيارات والاحلام والحرية المطلقة.

لكن هذا التساؤل لم يعد مجديا الآن وهى تقف أمام عمدة بلدة منطقة «مونتروى» التى تسكن فيها. وقد تأبطت ذراع عريسها الفرنسى الوسيم. والموقف يتطلب منها الموافقة والتوقيع على عقد الزواج المدنى الذى يتوج حياتها برباط مشترك ثم تتأبط ذراع عريسها الغريب إلى دار الزوجية ليتغير عالمها واسلوب حياتها واختياراتها باسلوب آخر قد تألفه أم لا تألفه سيان عندها فقد تعبت من هذه المدينة الصعبة التى بقدر ما تقدم من اغراءات فإنها تسلب الإنسان الكثير من ذاته وبساطة حياته.

كلمات العمدة تصل إلى اذنيها مشوشة، مضطربة تطلب منها بالفرنسية أن تردد بعض الكلمات التى تؤكد موافقتها على الحياة مع هذا الرجل فى السراء والضراء. تتلفت حولها كظبية مطاردة تحاصرهاالابتسامات، والورود والتهانى والمجاملات عيون حولها تترصد اللحظة الحاسمة كقطط فضولية. وصديقتها المغربية تتحين انتهاء مراسم الزواج لتطلق زغرودتها الفولكلورية الصارخة معلنة عن وقوع هذا الحدث العظيم.

كانت بملابسها البيضاء وطرحتها وازاهيرها بين الجموح مثل يمامة خائفة مترقبة تتأمل بطرف عينيها عريسها الوسيم الاشقر الذى تحسدها عليه صديقاتها المقربات فهو «فرنسى على طليانى» أجمل من «آلان ديلون» نفسه. تبتسم بسخرية مرة. تتساءل بينها وبين نفسها أى قدر هذا الذى جعلها تختار رجلاً غريبًا اقتحم حياتها بسرعة الاعصار وطلب منها الزواج بعد ثانى لقاء بينهما. كان مبهورا بها مثل صياد عثر على لؤلؤته الثمينة. أنها بالنسبة. إليه حلم حياته. تلك المرأة الشرقية السمراء التى تجسد حلمه وواقعه فى غموض الاساطير وحكايات الاميرات فى قصور الف ليلة.

لقد حلم منذ طفولته وهو يقرأ من كتب الف ليلة أن يختطف اميرته الجميلة من بين الاسوار الشاهقة يحملها على حصانه الابيض إلى عالمه البارد الصقيعى لتشرق فى حياته شموس الفرح والمحبة.. بهرته بتمنعها وبانوثتها الطاغية بحديثها الذى ينم عن

ثقافة عالية . وهو الذى تخيل المرأة العربية قادمة من الحرملك مسربلة بالخرافات والاوهام والجهل لا تعرف أكثر من حدود بيتها ومطبخها. وها هى سيدة احلامه تعرف من اللغات الاجنبية أكثر منه ومن الثقافة العامة ما يضعه أحيانا فى موقف الجاهل أو العاجز عن استيعاب الغازها وآفاقها. لذلك لم يتوان فى اللقاء الثانى أن يطلب الزواج منها وهو مقتنع بأنه وجد كنزه الذى يبحث عنه منذ أمد طويل. وهى وافقت بسرعة لانها كانت تحتاج إلى أوراق الاقامة وإلى ما يجعلها تشعر بالاستقرار والأمان فى هذه المدينة عندما تحصل على الجنسية الفرنسية والضمان الصحى والاجتماعى والبيت الجميل والزواج المناسب.

لكنها شعرت بنفس الوقت بانها ضيعت من حياتها معنى الخلوة الجميلة مع النفس وهى الفنانة الرقيقة الاحاسيس والتى تعشق العزلة كما تعشق الجنون البوهيمى فى اكتشاف الجديد فى هذه المدينة الواسعة المتناقضة، ايقظتها من شرودها اصابع عريسها تضغط على يدها المرتجفة الباردة. كم هو صعب ان تفهم ما يقولون أو ترد على تساؤلات العمدة الملحة. أو أن توافق على أية صيغة يواجهونها بها أو يقسرونها عليها.

ربما ارادت الطمأنينة أو إغفاءة على صدر رجل ما يحمل لها آمان الشواطئ عندما ينهكها اعصار الحياة ويتعبها مصارعة المتاعب اليومية.

هذه المدينة الكبيرة تصيبها بعض الاحيان بدوار المفاجآت والركض اللاهث اليومى خلف لقمة رخيصة تستنفذ العمر وايام الشباب القصيرة.

ارادت حياة هادئة. جنسية جديدة تضيفها إلى جنسيتها الاصلية اوراق تخولها اقامة مأمونة تجنبها قلق الخوف من أن تجد نفسها ذات يوم مطرودة من الطوابير الطويلة للاغراب إلى وطن جديد ومنفى آخر.

كرهت البطالة.. والعمل الغير ثابت ومضمون. يوم هنا ويوم هناك.. شهر رغيد وآخر مر. قررت أن ترتاح من هذه المعاناة التى لم تعد تمنحها إلا أرق مستمر واحساس بالخواء والضياع ينمو فى داخلها.. حتى ليمحو عن عينيها اثر للفرح أو التجدد لم يعد يعنيها متابعة المعارض والمسارح والافلام السينمائية الجديدة. لأنها لم تمتلك الشهية لاى مشروع جميل ومثير. بحثت عن مشروع زواج أبيض مع أى رجل يحمل جنسية أو اقامة لعشر سنوات تدفع فيه مبلغا من المال مقابل اوراق زواج لا أكثر . ولكن عندما وجدت ريشارد وجدت فيه زوجا رائعا يصلح لان يكون فارسا يقتحم عالمها بوسامته ومرحه وعشقه للتجدد والمغامرة، لذلك وافقت بسرعة وكانت بالنسبة إليها صفقة زواج مدروسة وناجحة. خصوصا وأنه سيجعلها تعيش حياة رغيدة فى شقة جميلة من أرقى الأحياء الباريسية، وسيارة فخمة وعمل جيد مضمون. قالت لها صديقتها المغربية لقد ربحت ورقة الحظ الكبيرة كانك اخذت الجائزة الكبرى فى (اللوتو).

ابتسمت وافلتت اصابعها من قبضة اصابعه. كانما تحاول أن تحرر نفسها من الافكار التى تعصف برأسها. وهى مطرقة تتأمل بلاط الصالة الفخمة واطراف ثوبها الابيض وحذاءها الفضى قالت لنفسها أنها لا شك تمثيلية قصيرة ستنتهى بعد دقائق وأعود إلى الاستديو الصغير وإلى نفس حياتى السابقة دون أن يتغير أى شئ على الاطلاق.

تمنت أن تهرب خارج هذا المكان الخانق لتتنفس بحرية وانعتاق بعيدا عن اسار العيون والقيود والابتسامات المجاملة وتلك الكلمات المجانية التى يرددها الرجل المسؤول بتلقائية كأنه ببغاء مدرب .

وجه أمها الاليف ينبض فى ذاكرتها.. يرتسم على الجدران الموشاه بالنقوش والرسوم واللوحات القديمة. ترفع رأسها تتلهى بمراقبة الجدران والسقف والقناديل الضخمة ريثما تنتهى هذه المراسم التقليدية السخيفة فكرت فى رسم لوحة جميلة تحمل خربشات تعبر عن قلقها فى هذا الموقف الصعب.. أو رسم كاريكاتور مضحك لوجه العمدة وحاشيته المحيطة به.. تتأمل صورة ملاك يرفرف بجناحيه فى سقف الصالة يبتسم وهى تتمنى لو تستطيع الطيران عبر أجنحته إلى غابات شاسعة وجزر تفتح صدرها للشمس والريح والرحيل.

تضغط باصابعها على باقة الورد وتشعر بتعب يهاجم جسدها حتى أنها فكرت بخلع حذائها الجديد الضيق. تخترق شوكة حادة قفاز الدانتيل الابيض فتوقظ فى المها صراخ داخلى وموجه من

ذكريات مطفأة كالرماد فى ذاكرتها التعبه على مدى السنوات الهاربة من العمر والغربة المتنامية فى داخلها منذ لحظة أن وطأت باقدامها هذه الارض الغريبة.

وجه أمها يرتسم على الجدران.. وجه شفاف رقيق الملامح تحيطه تلك الهالة السحرية من حنان ودفء وامان افتقدته فى حياتها الجديدة حتى درجة النسيان التام لقد نسيت هذا الوجه الحنون فى زحمة حياتها. وكأنما لم يكتف الموت أن غيبه أو كأن المسافات باعدت بينها وبين ذاكرتها طفولتها وشبابها وزوجها الاول.. وطلاقها. ظلت تتعايش للحظات قصيرة مع احلام توقظ فى داخلها احاسيس منسية فى دائرة اليقظة والدوار اليومى يلاحقها وجه أمها الاليف بعينين كائبتين مليئتين بالعتاب الرقيق كانما تهدم بتلك النظرة الشفافة ذلك الفرح الوهمى الذى يفترض أن يزهر فى ليلة العرس ويتألق بالحب والعطاء والمشاركة بكل ابعادها.

تشعر بانقباض حاد فى صدرها. وهى واقفة بجمود التماثيل أمام تلك المنصة العالية الرسمية التى تعقد خلفها عقود وصفقات لمؤسسة زوجية تجمع بين رأسين غريبين على مخدة واحدة. ولا يعرف أن كان يجمعها حب أو متعة أو عقد بين شريكين لا أكثر.

تشعر بنفسها أمام محاكمة من نوع جديد وغريب، القاضى يصدر قرار سجنها المؤبد فى زنزانة واحدة مع رجل غريب. قرار لا تستطيع نقضه أو الانفكاك منه فهذه اللحظة بالذات. وقد صدر

الحكم بحقها واعلن على الملأ بكلمات فرنسية. ترد على العمدة بقبولها للطرف الثانى زوجا وشريكا فى السراء والضراء.. تردد كلماته كالببغاء وهى تعرف فى قرارة نفسها بأنها نفيت خارج حدود نفسها وذاكرتها وجذورها إلى الابد. تدوى زغرودة حارة من صديقتها المغربية، فتشعر لوقعنا طعم السكين فى جرح قديم كاد أن يندمل. لم تكن هذه التجربة هى الأولى فى حياتها. لقد أحبت وتزوجت وكانت ليلة العرس من أجمل الليالى.. تذكر وقتها كم كانت متألقة بشبابها بفرحها وجمالها الانثوى الرقيق أحست أنها ست الصبايا واجملهن فى تلك الليلة تزف بالزغاريد وبين صديقات أليفات من المدرسة والعائلة.. وهى اليوم منكفأة على نفسها كزهرة ذابلة.. لأن الإناء الذى وضعت فيه بلا ماء، والأرض التى خرجت منها يابسة وجافة.. كانت تتمخطر فى موكب العرس بثوبها الأبيض مع وصيفاتها الصغيرات أشبه بأميرة متوجة وهى الآن تتمشى فى صالة البلدية بخطوات منهمكة كأنما سارت آلاف الأميال حتى تقطعت أنفاسها ولم تعد تستطيع أن تلاحق الزمن وتوقظ فى القلب دقات الشباب الأولى.

يوقظها من شرودها صوت المهنئين.. قبلاتهم.. يخاطبها عريسها بلغته الغريبة «مون شيرى» بدل حبيبى يدللها بنظرات عيونه الرمادية الفاتحة بلمسات أصابعه.. بصدره العارى كحدائق هجرتها الشمس والعصافير.. يقول لها: يا حبيبتى يا مرآة حياتى.. أنت أميرتى الشرقية وأنا الفارس الذى استطاع أن يخطفك إلى وجوده وعالمه الجديد.. كلمات جميلة شاعرية لكنها لم تكن ذات

وقع حنون وجميل.. لم تطربها ولم تثر فى نفسها كوامن الجنون والانبهار ولحظة تتفجر بعطاء صادق نابع من أعماق القلب تتساقط فى داخل السيارة البيضاء المزينة بالشرائط والدانتيل والورد.. تلوح لها عشرات الأيادى من خلف زجاج السيارة.. ترفع يدها المتعبة بلا اكتراث تحيى المودعين والمهنئين الذين شاهدوا تلك التمثيلية القصيرة ذات الفصل الواحد.

رجل داخل الشرنقة

صفعت الباب خلفها وخرجت ثائرة ترميه بشتائم هى مزيج بين اللغة العربية والفرنسية.

لم يبال بصراخها وشتائمها النابية، فهو يعرف أنها تتصرف من موقع مستواها الاجتماعى والأخلاقى وهو التقطها من الشارع صدفة لا يعرف أصلها ولا فصلها. كل ما كان يريده منها ليلة عابرة تؤمن له متعة سريعة بأى ثمن.

فوقع حزينًا منكسرًا أشبه بطفل حرن. كان يتصور أنه من خلال علاقاته العابرة ونسائه المتعددات يمكن أن يسد الفراغ العاطفى الذى يعيشه فى مدينة صاخبة صعبة تستنفر أحاسيسه وتثير مشاعره الدنيوية بأجوائها الداعرة المغرية.

لكنه وجد نفسه غارقًا فى ضياع وقلق نفسى يستفز أعصابه وينهك جسده حتى لم يعد يعنيه أن يرتفع قليلاً فوق هذا المستوى ليفكر ويكتب ويقرأ أو يمارس أية هواية يحبها. انزلق فى وحل المدينة ورمالها المتحركة حتى لم يعد باستطاعته أن ينجو من هذا المأزق الذى وضع نفسه به. تنامى فى داخله صراع مر صار أشبه ببؤرة سوداء تتراكم فيها الاحزان اليومية.. الروتين، والعمل المجانى وتفكير سطحى وفى نهاية النهار مع جسد تافه يفرغ فيه رغباته وشهواته. حتى أصبحت رجولته وفحولته التى يفاخر بها بين اقرانه من الرجال. ليست أكثر من غريزة حيوانيه لاتنتمى إلى معانى الحب الحقيقية التى تتألق فى الروح وتزهر فى نبضات القلب مثل لغة العصافير الجميلة. صار أشبه بقط شبق يصل موائه الليلى إلى أبعد من حدود عقله ووعيه. وكلما ارتشف من ماء البحر ازداد عطشه لعلاقة دافئة تعيد له انسانيته وصفاء نفسه. اراد امرأة متميزة فريدة تتعامل مع الأشياء بذكاء وشاعرية. ومع العالم بفن وتجربة كره الاجساد الرخيصة.. والنساء الفارغات. يحلم بامرأة حقيقية تعلمه الجديد وتبهره بعالمها وعقلها ووعيها. هو القادم من أعماق الريف إلى أكبر مدينة وجودية فى العالم لم يستطع الخروج من شرنقته الضيقة وإن يفك اسار الخيوط الوهمية التى تربط عقله بالماضى وسخافاته. لم يتعامل مع المدينة الا من خلال أفق ضيق محدود. لذلك اغلقت باريس أبوابها فى وجهه وتركته داخل شرنقته يتأكل داخله بالروتين اليومى. وبحياة سخيفة مجانيه. لم تمنحه الا شهادة حمل لقبها وتفاخر به. وصارت فى نهاية الأمر

مجرد ورقة من أوراق كثيرة فى ملفاته المتعددة مثلها مثل ورقة الإقامة وورقة الضمان الصحى وورقة ايجار بيت وعقد عمله.

لم يشاهد يومًا مسرحية باريسية أو اوبرا عالمية أو سمفونية موسيقية. ولم يعرف أبعد من حدود عمله وبيته المتواضع محاولاً اكتساب شهرة سريعة وبريقًا أشبه بومض البرق وسرعان ماينتهى مع صفاء الجو. وظهور الحقيقة العارية إلى خير الوجود وشعوره بالخواء يكبر يومًا بعد يوم. صار قطًا هرمًا يقبع فى زاوية منسية يعجز أن يتحرك ويقفز فوق اسوار المستحيل أو فعل المغامرة ليفعل شيئًا جديدًا.. مبهرًا.. يضيف تجربة جديدة.. تلامس وجدانيته وسلوكه لكنه استسلم للدوامة. وكبر عمره. وتساقط شعر رأسه. وجسده صار أكثر تعبًا وإرهاقًا يستهلكه بمجانية وعبث بلا شعور وبلا إحساس بالتواصل الإنسانى والروحى قبل الجسدى الدونى يرى النتيجة أمامه لقب بلا معنى.. حياة بلا هدف. لا زوجة ولا أولاد ولا حب يتألق فى حياته مثل وردة فى صحرائه الجافة. الحب مكسور فى داخله مثل شرخ عميق لايمكن أن يردمه نسيان أو علاقة هامشية عابرة تزيد من حدة موقفه اللامبالى من الحياة.. تتآكل فى داخله وهو يتقوقع فى شرنقته الضيقة.

دون أن يجد نافذة أو حتى ثقبًا ينظر من خلاله إلى دنيا جديدة جميلة تمنحه إحساسًا متجددًا بأن شيئًا ما يتغير. أو ينبض من داخله كأنما هو الغبار المتراكم يومًا بعد يوم. يسأل نفسه ماذا أعطته هذه الشهادة وهذا اللقب الكبير.. ومثله كثيرون ممن

يحملون هذا اللقب وينتهون أخيرًا فى أعمال عادية لاتنتمى إلى تخصصهم بأية صلة يتعايشون مع المدينة بهامشية مطلقة وتتحول الحياة إلى مجرد روتين يستهلك العمر والفرح والروح ويزيد من هوة الانزلاق فى ذلك الشرخ العميق الذى حفر خطوطه فى الوجه المتخض والجسد المرهق والعمر الذى يمضى بلا معنى... وبلا تجربة حقيقية تعيد فرح الطفولة. وتجدد الذات نحو عالم أفضل وارقى وأجمل.



قرار من المنفى

اتخذت مقعدها فى القطار السريع المسافر إلى الجنوب الفرنسى كانت تعبة ورأسها ممتلىء بالهموم والمتاعب. ارادت فسحة صغيرة من التأمل العميق بعيدًا عن ضجيج باريس. لحظة هدوء حقيقية فى أيام اثقلتها وطأة الجرى اللاهث خلف لقمة العيش وخلف تفاصيل صغيرة تتراكم لتصير بحد ذاتها مشكلة كبيرة تثقل كاهل القلب. وتنهك النفس.

قبل أيام شاهدت برنامجًا تلفزيونيًا خاصًا حول مرض الانهيار العصبى.. رأت عشرات من الناس الاسوياء يتساقطون تحت وطأة ظروف نفسية وكآبه واكتئاب يوصل بهم إلى حافة الانهيار والعلاج داخل المصحات المخصصة لذلك ما إن شعرت ببعض الاعراض التى يتحدثون عنها حتى حملت حقيبتها وقررت السفر.

بحثت فى الخارطة الفرنسية عن ابعد مكان ترتاح فيه أول شروطه شمس مشرقة وسماء صافية. وهدوء يعيد لذاكرتها أيام طفولة بعيدة فى قريتها الهاجعة فى أحضان الجبل تتفيأ ظلال الصنوبر وتلهو العصافير على أغصانها الوارفة.. وفى جو من البساطة والعفوية المطلقة أصبحت تفتقده فى تعقيدات مدينة مادية وكبيرة كباريس.

اختارت مدينة ساحلية صغيرة فى الجنوب الفرنسى اسمها (كاب داكد). مدينة تشابه إلى حد ما مدن شاطئية فى جزر قبرص واليونان وتونس. ارادت عزلة عن البشر وعن العمل والتلفونات. وهى لم تحدد فيما إذا كان اختيارها هذا البعد هو هروبًا أم فرصة للانعتاق من المشاكل اليومية ومراجعة النفس والتأمل العميق فى مغزى غربتها وحياتها وأفاق مستقبلها القريب والبعيد لقد تركت نفسها للزمن والأيام تجرفها فى اتجاه واحد مثل مياه نهر تتجه بلا اختيار نحو المصب دون أن يقاومها سد أو يتوقف جريانه لسبب ما تساءلت هل ستكتب لها غربة أخرى فى منافى ومدن جديدة وهى التى ألفت القطارات ومحطات السفر والرحيل الدائم فى اتجاه البحث عن شىء مبهر مثير وجدير بالمغامرة حتى فقدت احساس الامان والاستقرار وصارت مثل طائر النورس لايمل عن الطيران خلف كل سفينة وشاطىء وجزيرة تأملت من نافذة القطار الطبيعة الخضراء تمنح عريها للشمس والربيع القادم وفكرت بأنها ستكون فى أحسن حال عندما ستريح رأسها فى إطار جديد ومكان هادىء

يحقق لها نعمة التسكع والتمشى والتأمل والنوم العميق المبكر بدون الاستعانة بالحبوب المهدئة والمنومة التى اعتادت عليها لتطرد الارق الملح الذى يطاردها كل مساء كانما هو قدرها.

ارادت مراجعة حساباتها مع نفسها فى فرصته لاتخاذ قرار جرىء ومنطقى فى العودة إلى بلدها واستلام منصبها كمعيدة واستاذة فى كلية الطب أم تقبل المنصب المغرى الذى قدمته لها إدارة المستشفى الجامعى الذى عاشت فيه لسنوات وعملت فيه بكفاءة وجدية خلال دوامها فيه كطبيبة مناوبة أو طالبة متمرنة.

قلبت صفحات المجلة العربية الملونة التى حملتها معها لتسلية وقت السفر الطويل. رأت فى مقابلها عيون جارها الفرنسى ترمقها بفضول غريب. خافت أن يكون واحد من العنصريين الذين يستفزهم وجود العربى معهم فيتحولون إلى مشاكسين وقحين أو قد يتعاملون مع العربى بالاذى والاساءة وتذكرت حوادث عديدة جرت فى القطار أو المترو لعرب شباب من عنصريين يكرهون وجود الاجانب بينهم. طوت المجلة ووضعتها فى حقيبتها.. لكن جارها الشاب سألها بفضول: أية لغة تقرأين أراك تقلبين الصفحات من اليمين إلى اليسار؟.

ابتسمت له مجاملة وقالت برد سريع: اقرأ اللغة العربية.

هز رأسه بإعجاب وسألها هل هى لغة أهل مصر. لقد زرت بلاد عربية عديدة منها مصر والمغرب والجزائر وتونس. واحببتها كثيرًا.

إجابته مبتسمة: إنها لغة البلاد العربية من شرقها إلى مغربها نحن نتحدث لغة واحدة مع اختلاف اللهجات بين بلد وآخر.

من هذه النقطة بدأ حوارها مع جارها الفرنسى الذى عرفها على نفسه بأنه من أم إيطالية وأب فرنسى يعمل فى التجارة وينتقل بين بلد وآخر.. حدثها عن عشقه للآثار العربية والنساء الشرقيات قال انهن مختلفات فى الطباع والشكل عن المرأة العربية وحدثها عن علاقته بامرأة جزائرية وأخرى من المغرب العربى وجد فيهن دفئًا خاصًا وسحرًا كالاميرات الاسطوريات ابتسمت له مجاملة عندما قدم لها بطاقته والمح بإعجابه بها وانبهاره بشخصيتها وثقافتها وأنه استفاد كثيرًا من المعلومات التى قدمتها له عن مايتعلق بالشرق وعاداته وتاريخه.

كانت تجامله فى الحديث وترد على اسئلته الفضولية العديدة وهى التى تمنت أن تعيش لحظات تأمل للمدن الصغيرة التى يمر بها القطار مثل افيون مونبليه سبت وغيرها لكن جارها سرق منها هذه المتعة بحديثه معها طوال الطريق.

عندما وصلت إلى «آكد» اختفى الرجل سريعًا بين احضان عائلته التى كانت بانتظاره فى المحطة حتى إنه نسى أن يلوح لها مودعًا وكأنما لم يسرق من وقتها خمس ساعات متكاملة.

عند أقرب فندق صغير يشرف على خليج للسفن واليخوت الخاصة وضعت اغراضها ملأت البيانات اللازمة ثم انطلقت نحو البحر مشوقة لمرآه الرائع. كانت الشمس دافئة ناعمة تسللت إلى

جسدها ومنحتها إحساسًا مطلقًا بالحرية والاحساس بلحظة انعتاق عن كل مشاكل الدنيا وهمومها. خارج إطار الزمن الباريسى الصعب.

تمشت على الرمال الناعمة تداعب بقدميها الحافيتين رمال الشاطىء الناعمة الذهبية والاصداف الصغيرة التى تركها المد والجزر على الشاطىء للنوارس الجائعة التى كانت تزقزق وتتخاطب مع بعضها البعض بلغة خاصة دون أن يعنيها أو يفزعها وجود إنسان غريب بينها.

فتحت ذراعيها للشمس والهواء الرطب. وركضت على البحر كطفلة صغيرة تتعثر بجدائلها الطويلة وبراءتها المنسية على شاطىء بعيد فىَ بلدتها.

احست أنها تغسل نفسها من كل ماتراكم وما استفاص من ألم وحزن اوصلها فى بعض الاحيان إلى درجة عدم الثقة بالنفس والناس والاصدقاء والحب تذكرت السنوات الضائعة من عمرها.. وتمنت فى قرارة نفسها لو يعود الزمن إلى الوراء لاختارت طريقًا آخر لا يمر من وجع الغربة ولا من احزان تلك الوحدة المرعبة التى تعيشها.. وتنبض فى مساماتها كل مساء.. عندما يسجنها الليل فى زنزانة الصمت الموحش والصقيع الدامى تعبت رواحًا ومجيئًا على الشاطىء. وبدأ الغروب يرخى بسدوله على المدينة التى بدت مظلمة وهادئة لا يسكنها الا العجائز وكلابهم المدللة.

وعند أقرب مقهى جلست وطلبت فنجان قهوتها المرة تستمتع بارتشافه مع موسيقى هادئة تجيئها من مذياع المقهى العتيق جلست تراقب المارة من العجائز الذين تأبطوا ذراع زوجاتهم المسنات ويجرون كلابهم كأنما هى جزء من عالمهم وحياتهم.

تخيلت نفسها واحدة من عجائز المدينة تعيش فى أسار الغربة والوحدة وتفتقد احلى الروابط العائلية العميقة.. وتتوكأ على ذراع الزمن والذكريات الدافئة القادمة من أعماق الطفولة والصبا إلى ذاكرة الشيخوخة. احست بنبض القلب يسرى فى داخلها. خافت من الفكرة نفسها وتمنت لحظتها أن تتزوج وتنجب الاولاد وتصير أمًا وجدة مثل كل الجدات الرائعات.

حسبتَ الزمن وأيام العمر التى مرت سريعة فى باريس دون أن تترك أثرًا لبصمة جميلة تزهو فى القلب. جاءت إلى هذه المدينة الكبيرة تخرجت لتوها من كلية الطب لتكمل دراستها العليا وتبحث عن اختصاص طبى نادر فى بلدها ولأنها كانت متفوقة فى كليتها فقد اختيرت ضمن البعثة الدراسية والتى لم تكلفها الكثير من المعاناة كأمثالها الطلاب العاديين. إذ وجدت السكن اللائق المعد لاعضاء البعثات فى المدينة الجامعية. كما أن نفقات الدراسة كانت مؤمنة لها شهريًا وكان عليها أن تجد وتجتهد حتى تحقق طموحها وتنال الدكتوراه وتعود لاستلام منصب علمى كبير فى جامعة بلدها.

لذلك رفضت عرسانها العديدين الذين كانوا بالنسبة لزميلاتها يعتبرون لقطة نادرة يحسدونها عليها. لأن الشهادة الجامعية

الكبرى هى أقصى طموحاتها وآمالها. لذلك انكبت على تحصيل العلم والمال غير عابثة بالزمن ولابيصمات العمر التى تركت خطوطها حول العينين والشفاة الجادة التى لم تر الابتسامة المرحة إلا نادرًا.

كانت باريس بالنسبة اليها ليست إلا مدينة علمية تفتح صدرها لأمثالها الجادين الطموحين ولم تدرك إلا مؤخرًا بأن طعم الحرية لم تتذوقه إلا نادرًا وكان طعمه لاذع وحار فى بعض الأحيان لقد انساقت فى اطار حياة ملولة لاتتغير طعمها إلا فى أوقات صغيرة كانت تقضيها فى لحظة مرح مع الصديقات والاصدقاء فى رحلة جامعية أو فسحة للراحة أو دعوة لغداء شرقى أو فيْلم سينمائى لا أكثر.

إلا أن معظمهم كان يتحاشى دعوتها لحفلات ساهرة خاصة يقيمونها بينهم وبين بعضهما فى مناسبات عديدة. خوفًا من جديتها وعدم انسجامها معهم فى الهزل والمزاح واللهو البرىء وغير البرىء.

واحد من بين الزملاء الاطباء العرب.. رأت فى عينيه نظرة خاصة فيها دفء واعجاب ودعوة صريحة للحب. حاول أن يكسب صداقتها بأى ثمن سواء عن طريق المناوبة معها فى المستشفى ليلاً أو دعوتها لعشاء فى أحد المطاعم اللبنانية الصغيرة أو فيلم سينمائى جديد.

شعرت بغريزة الانثى أنه يتقرب منها.. ويشعرها بأنها جميلة ومرغوبة عندما كان يطرى تسريحتها أو ثوبها الجديد. وهى رغم

عدم اهتمامها بمسألة جمالها واناقتها التى نسيتها بين طاولات التشريح وعنابر المرضى ورائحة المختبرات. إلا أنها بدت جميلة وناعمة تلك الليلة التى قبلت بدعوة زميلها العاشق إلى فيلم سينمائى جديد كان قد نجح فى مهرجان كان بالجائزة الأولى.

بعد لحظات من بدء الفيلم احست أن مشاهدة منها الكثير من الصراحة والجرأة إلى درجة شعرت بأنها تتغرس فى مقعدها مخجلة مرتبكة وأن الدماء تسرى فى عروقها ساخنة إلى درجة وجدت نفسها تفكر بمغادرة قاعة السينما والاعتذار من رفيقها بأى سبب. إلا أنها ايضًا احست بالحرج من هذه الفكرة وتصورت أنها ستثير الشكوك والريبة فى تصرفها هذا وعليها الانتظار حتى نهاية الفيلم وقررت بينها وبين نفسها بأنها تشاهد فيلمًا لايختلف عما يقدمه التلفزيون كل مساء من أفلام جريئة للغاية بعد منتصف الليل.

الا أن ما اقلقها هو أن زميلها توده وتحترمه ولاتستطيع أن ترفع عيونها للحظة واحدة فى بحر عينيه العابثتين الجريئتين دون أن تشعر بأن الدم يجرى حارًا فى وجهها وأن نبضها يكاد يصل وجينه إلى مسمعه أحيانًا.

احست بيده تلامس يدها المترخيه على جانب المقعد.. واصابعه تداعبان اصابع يدها المتوترة برفق وحنو.. وكتفه تقترب أكثر وأكثر من كتفها حتى شعرت بأنفاسه قريبة جدًا من وجهها وشفتيها. لم تستطع أن تتابع اللعبة. وشعرت بأن الأرض تميد تحت اقدامها وأن

طاقتها على الاحتمال قد فاقت قدرتها. كانت راغبة فيه وخائفة منه تتوسل من عينيه النظرة ومن يديه اللمسة الغير مقصودة عندما يفحصان مريضًا معًا. إلا أنها كانت تعانى نفس الوقت من صراع يتنامى فى داخلها كلما تقدمت خطوة نحو عالم الحب خوفًا من تقاليد متراكمة فى داخلها.. وأخلاقيات تمارسها لوحدها.. وكأنما هى عالم خاص بحد ذاته. إنها تريد أن لا تفقد صورتها ومركزها كدكتورة عربية لازالت لتوها قادمة من أعماق الريف والمدينة الصغيرة. لازال فى داخلها يسورها بالخوف والعزلة عن الناس والزملاء والحب والعلاقات الإنسانية التى تجدها حولها عادية جدًا كأنما هى جزء من حياة الناس من مشرب ومأكل وملبس وهى لا تعرف أن كان زميلها هذا يحبها أم أنه يريد أن يقضى الوقت معها ويتسلى بها ثم يتركها دون أن يعبأ بمشاعرها وإحساسها.

سحبت اصابعها من كفه المطبقة. وجلست متقوقعة فى مقعدها ناظرة باتجاه الشاشة بغضب. خرجا من السينما صامتين. واستقلا المترو إلى المدينة الجامعية دون أن ينبا بأية كلمة. احست أنه غاضب منها. ولولا العيب لتركها تذهب لوحدها فى المترو بدل اصطحابها بنفسه حتى باب غرفتها الصغيرة شكرته.. ثم اغلقت الباب على نفسها وجلست تفكر طويلاً به. قررت أن تجرب معه خطوة جديدة فى خلق علاقة متزنة ناعمة لايشوبها الغموض أو الحرية المطلقة.

بعد هذا اللقاء. حلمت طويلاً به وعاشت الارق والترقب. كانت تتابعه بنظراتها وتلاحق خطواته بدون أن يشعر جعلت مواعيد الدوام الليلى متوافقة مع دوامه. لكنها شعرت بأنه يتعمد الابتعاد عنها كلما راها فى الرواق أو غرفة العمليات أو حجرات المرضى وأنه لا يعطيها فرصة الكلام معه إلا فى تبادل تحية جادة مقتضبة يؤديها كأنها واجب من واجباته.

وفقدت صوابها ذات صباح عندما وجدت زميلتها الفرنسية خارجة من غرفته فى الصباح الباكر. وقد بدت أنها قضت الليل بطوله معه. احست بأن الفرنسية سرقته منها وأنها أحق به من غيرها. لكن بعد أيام قليلة عرفت أنه اقترن بزميلتها الطبيبة الفرنسية رغم أنها كانت بنظر الجميع باردة الشكل ومتعالية على الزملاء العرب. احست وقتها بأن فرصة الحب الجميلة والوحيدة فى حياتها قد فقدتها دون أن تعرف السبب. هل لأنها كانت متمنعة عنه أم لان الفتاة الأخرى كانت أكثر ذكاء وقدرة منها على الوصول إلى عالمه واكتسابه زوجًا إلى الأبد.

السنوات بعدها مرت متباطئة باردة استلمت الدكتورة بعد تخرجها عملاً جديدًا فى المستشفى وأصبح لها راتبًا وبيتًا صغيرًا فى الضواحى وسيارة رينوه ناعمة. لكن كان شيئا واحدًا وهامًا ينقصها فى هذه المدينة الكبيرة المبهرة وفى زحمة عملها وحياتها الخاصة.. هو الحب والرجل.

وجدت رجالاً كثيرين يلهثون خلفها لكن لم تجد فى عيونهم تلك النظرة الشفافة العميقة التى تدفع الدماء فى قلبها وتجعل نبضها صاخبًا مثل موج البحر فى لحظة العاصفة.

وكبرت أكثر. واهلها بين رسالة وأخرى يذكرونها بالعودة إلى بلدها لتستلم عملها والبحث عن عريس مناسب فى الشأن والمركز والمستوى تذكرت بأن العمر لم يعد يمنحها الوقت الطويل لأن تكون أمًا وزوجة وعليها أن تقرر وتدرك ذلك قبل فوات الاوان.

فى مدينة كباريس لن تتاح لها فرصة وجود زوج عربى مناسب يمكن أن يمنحها أهمية احساسها بالنجاح والتفوق الذى حصدته لمدى سنوات انفقتها فى الغربة تبحث وتدرس وتجد. وبنفس الوقت أن يمنحها من الحنان والوقت الذى افتقدته على مدى سنوات الشباب التى ضاعت فى زحمة الغربة إلى غير رجعة.

لن تندم.. لازال فى العمر بقية.. امسكت بالهاتف العمومى وطلبت بيت العائلة.. خاطبت أمها قائلة.. سأعود الاسبوع القادم حضرى لى الاكلات الطيبة وغرفتى الصغيرة.. هذه المرة سأعود يا أمى.. نهائيا.. وسأكون بينكم إلى الابد..

وضعت سماعة الهاتف وابتسمت بسعادة.. لقد عرفت فى هذه اللحظة طريقها نحو المستقبل الذى تريده واختارته من المنفى البعيد من على شاطىء فرنسى مهجور.



ثعلب تحاصره الغربة

جلس بين جدران بيته الصغير النائى فى أحد الضواحى الباريسية يدور بين أرجائه الصامته كثعلب محاصر فى كمين. كلماتها تقرع اذنيه حادة كوخذ الابر. ورنين الهاتف الملح أوقظه من شروده العميق فرفع السماعة بلا مبالاة وكلم امرأة على الطرف الآخر بكلمات باردة جافة. حتى فكر أن يغلق السماعة فى وجهها لينهى حديثها التافه الملح. لم تعد تعنيه تلك النساء «ايمان وخديجة وجميلة وكريستين». لكنهن متشابهات. جسد فارغ ووعى محدود. عرفهن لأيام قليلة لينسى فى أجسادهن عقله.. ونبض قلبه. ثم شعر انهن يثقلن على حياته ويضفن إلى ضياعه وقلقله ضياعًا أكثر إيلاماً بل احساس الذنب والضألة والدونية التى ينحدر إليها مسلوب الارادة فلفظهن قرفًا. الا انه عاود البحث عنهن من أجل مغامرة سريعة أولحظة عبث عابرة.

ماذا سيفعل فى تلك الساعة المبكرة من المساء. المنطقة التى يسكن فيها بالضواحى البعيدة هادئة تسودها عتمة موحشة تطبق على صدره وتجعله أكثر شعورًا بالكآبة والوحدة. وبعض العابرين يسرعون الخطى مع كلابهم أو يركضون نحو بيوتهم وقد تأبطوا (الجاكيت) ورغيف الخبز الفرنسى الطازج لينهوا يومهم المتعب أمام برامج التلفزيون وينامون كالدجاج.

هو الأخر خرج مبكراً من عمله وعاد إلى منزلة اكل سندويتش من خبز قديم وجده فى مطبخه الذى تسوده فوضى عجيبة مزعجة.. ووقف على النافذة يرنو عبر الفراغ بملل. هو بلا هوايات تشغله ولا اصدقاء يزورونه عالمه محدود المسافة بين المكتب والبيت. وإذا ما كان لديه مواعيد ضرورية انجزها بسرعة وعاد راكضاً إلى وكره القاصى لينزوى فيه ولا يرتبط بالخارج إلا بالهاتف يرن بين فترة وأخرى يشغله بثرثرة مجانية عبثية مع هامشيين مثله يقضون وقتهم بالنميمة والحكى على فلان وفلانه من الناس يحسدون الناجحين ويرصدون عيون المحبين والعاشقين بعيون ملؤها المكر والضغينة، كانما يستكثرون عليهم احساسهم النبيل وعواطفهم الجياشة. ويصرون على التعامل مع باريس من منطق الحارة والقرية الضيقة وجلسات «الحرملك» واستقبالات النسوان التى أصبحت فى عصرنا الحالى موضة قديمة.. طواها التطور بالنسيان والأفول.

الا أن صديقنا المثقف يصر على التمسك بهاوممارستها علنًا وفى أهم عاصمة للثقافة والحرية فى العالم.

وإذا كان «طه حسين» قد قال فى عصره عن باريس انها تكاد نختصر العالم الانسانى على اختلاف أزمنته وامكنته، وان فى باريس حرية وعلم وحضارة وفلسفة. وحياة يعجز الفرد مهما تكن قوته على فهمها والإحاطة بها والتعمق فى تحليلها أوأن يعطى عنها صورة صحيحة أومقاربة.

فان صاحبنا الذى يدعى الثقافة ويتشدق بها فى فم عريض لازال يغرق فى ضحالته الفكرية ويصر على التعامل مع باريس بهامشية من خلال شرنقته الصغيرة. كل حرية بالنسبة إليه تعنى «الانفلات» وكل امرأة حرة وواعية. هي «رخيصة داعرة» كأنما يطالب المرأة العربية فى باريس أن تحمل معها الرواسب والعادات المتخلفة لتمارسها وتضع ذاتها فى اطار العزلة عن الناس والمجتمع والحياة من منطق جدته (من الدار إلى القبر. نسى هى انها مثله أو ربما أهم منه بكثير. جاءت إلي هذه المدينة تتعلم وتكافح وتعيش تجربتها الذاتية باستقلال ووعى دون رقابة الآخرين.. أسرهم لقدراتها وعطائها، واذكر أن صديقه ذات تجربة ناجحة فى باريس قالت لى يومًا. لقد علمتنى باريس فى سنوات قليلة ما لم أتعلمه فى كل سنوات حياتى السابقة، لقد منحتنى فرصة التعرف على نفسى وقدراتى. وجعلتنى أمام طريق الخيار فى حرية انسانية واسعة استطيع أن أخذ منها ما يصلح لى ويفيدنى ويغنى تجربتى ومعرفتى بالدنيا والناس. وبالعكس فالمرأة العربية قد اثبتت انها أكثر نجاحًا وابداعًا فى حقول كثيرة، استطاعت أن تقف فيها بخطى ثابتة وواثقة. وربما من منطلق احساسها العميق بأهمية

معنى الحرية لها. ولاثبات تفوقها وجدارتها على المستوى العالمى أكثر منه المحلى.

انها تحقق ذاتها من فلك واسع للاختيار. ولا تدور فى اسار المجتمع والاسرة والنواهى والضوابط المعقدة. التى تحيط بارادتها ووعيها وطموحاتها فتشلها عن العطاء والابداع. وفى باريس رأيت زوجات عربيات يعملن وازواجهن فى (الشوماج) اى البطالة. وفنانات متفوقات فى معارض عالمية وتعرفت على نماذج لنساء اديبات كان لهن صوتًا متميزًا فى الحياة الثقافية الباريسية. وصديقنا المتخلف هذا لازال يناقش فى صورة المرأة من خلال طول تنورتها ولون ماكياجها وعلو حذائها. كأنما لا يعنيه أن يبتعد عن الشكل الظاهرى ليبحث وينقب فى المضمون. لفتيات جئن إلى هذه المدينة مثل عصافير جميلة.. وتحولن مع الزمن إلى نسور لها أجنحة قوية تتغلب على أصعب الظروف وأعقدها.

هو لم يحب هذه المدينة ولم يعرف اسرارها وخباياها ووجهها الجميل. وتحولت علاقته بها إلى علاقة مادية سطحية.. لا تعنيه إلا بكسب سريع ومؤقت. وربما يكون افضل حالاً من بلده الذى يعانى المشاكل الاقتصادية المتنامية والبطالة وانخفاض الدخل.

وكأن باريس باجوائها الحضارية لازالت فضفاضة عن وجوده الصغير المتواضع فهو يصر على ارتداء جلبابه الريفى تحت ملابسه المودرن ليوهم الآخرين بانه مثلهم. لكن فى واقع الأمر معزول عنهم اجتماعيًا وانسانيًا.. دون أن يعرف حقيقة عاشها كل من دخل هذه المدينة من ابوابها الصعبة أو السهلة بانها بعلمها ولهوها وثقافتها

العـاليـة هـى ملجـأ للعـقل الانسـانـى وتظهـر ثـمـراتهـا اليـانعـة الحلوة والمرة ليذوقـهـا زائرهـا. ويـتـعلم منهـا حكـمـة الحـيـاة وسـر الحـضـارة العظيـمـة منهـا يعـرف الإنسـان نفـسـه وقـرينـه الإنسـان كـان يكون حيوانًا اجتماعيا كما قال ارسطاطوليس أو حيوانًا مدنيًا كما وصفه الفلاسفة العرب.

وإذا كـان الكاتب الكبيـر طه حـسـين قـد نهل من آداب باريس وثقافتها من أوجه عديدة فلازالت كلماته وإبداعاته تحمل الدهشة والانبهار مما يحيط حوله حتي سماها «عاصمة العالم الحديث» وقال فيها باحد مؤلفاته «ان لكل انسان وجهًا خاصًا فى حبه لهذه المدينة وانت لا تسـتطيع ان تحـبـهـا من كل وجـه لانهـا أوسـع من حياتك وأعظم من قدرتك على الحب وأرفع وأجل من أن يحيط بها حب فرد أو افراد».

فكيف اسـتطاع هذا الرجل أن ينشـغل عن حب هذه المدينة العظيمة بتوافه الامور والمشاغل. ويستغرق فى عادات يومية روتينية حتى اصبح كثور الساقية يدور فى نفس المكان، معصوب العين عن كل جـمـال وفـرح وتجدد دهشـة. وصـار قلبه له صـوت أنين مكتـوم يتفجر بين حين وآخر بصرخة تصل إلي عنان السماء. أو ضحكة مثل تكسر صحون من ا لفخار. أو دمعة تهطل كالوحل فى مياه المستنقعات الضحلة. تحولت كلماته الدبلوماسية الفخمة المنمقة إلى لحن قديم يتردد فى اسطوانة مشروخة خالية من قيمة وروح كلمات مجانية قد تغرى امرأة وحيدة تعانى من فراغ عاطفى أو إنسانى أو وقتى. أو تائهة وسط ضجيج باريس وضبابها البارد

يشغلها الفراغ عن ممارسة ما هو أكثر اهمية ومتعة من كلمات اشبه بفقعات الصابون اللزجة.

هى المرأة الوحيدة التى كشفت زيفة ووجهه الآخر. عرت قشوره لتكشف ضعفًا فى الشخصية. وتلون فى التصرف والكلام والممارسة كحرباء تخاف أن تكشف لونها الاصلىَ فتتحول إلى فريسة سهلة مستهلكة. واذا كان للسفر عشر فوائد أو أكثر. فهو لم يقطف مَن ثمارها إلا ثمار فجة مرة الطعم. الا انها ملونة مغرية وشهية. سلبيات تراكمت فى اعماقه يومًا بعد يوم ووضعته فى حالة انفصام وتردد ما بين مجتمع المحيط والانتماء.. كان يقف على عتبة القرن الواحد والعشرين.. وعقله لازال فى القرية النائية. يتعامل بمنطقها وعاداتها المتخلفة.. بينما يهمل ما هو قيم وحقيقى وجوهرى فيها. ولان مجتمع العشائر والبداوة يحب الكرم.. وهو بخيل جحود. يحترم الصدق وهو متلون ومنافق حسب الظروف والاحوال وفى اطار مصلحته الشخصية. ومن هذا المنطلق تعامل مع الناس المحيطين به.. وفقد يومًا بعد يوم الاصدقاء الحقيقيين والمرأة التى كان يمكن ان تثرى وجدانه وتدفئ صقيع حياته بحنان مفقود من اعماقه.. منذ ان تغرب بعد موت والدته ووالده.

المرأة الوحيدة التى أحبها كالادمان لم يبهرها.. ولم يضحك على ذقنها كالاخريات بكلام معسول ناعم ووعود كاذبة. فهى تجاوزته بالتجربة والوعى وصنفته فى قائمة المثقفين المدعين الذين يملؤون مقاهى الارصفة بصخبهم وكلامهم الفاضى. فارغون من المحتوى الفكرى ومن ممارسة فعلية للثقافة يضيعون بين السطور والكلام المجانى ويتناقضون عند الواقع.

ليس مهمًا أن نعرف ما معنى الحرية بقدر ما نمارسها. أو نتحدث عن الحب ونحن اعدائه، ونكتب عن الفضيلة ونحن براء منها.

وهذا الرجل إذا ما تحدث بموضوع تخصصه الجامعى تراه يكرج بالكلام ما شاء الله (بلبل فصيح) وإذا ما تغيرت لغة الحوار تلجلج لسانه وتلكأ أو صمت كجده العتيق أبو الهول. ويا هول الايام التى عرفها فى الغربة وكان من المفروض أن يستفيد منها ليتطور.. ويبدع، بدل أن تترك الايام بصماتها فى وجهه التعب وجسده المترهل.. وصلعته التى تزداد مساحتها يومًا بعد يوم.. حتى بدا أكبر من عمره الحقيقى بكثير.. وهو إذا ما قيم تجربته فى الحياة سيجدها حتما فارغة مملة.. كئيبة وقد اقترب عمره من الأربعين لم يجن سوى لقب جامعى ،شهادة جامعية لم تضف إلى وظيفته المحدودة شيئًا ولا تطور مركزه أو حقق فرصته إبداع حقيقي فى حياته حتى فرحته الزواج والحب وانجاب الاولاد انشغل عنهم بمغامرات عبثية مؤقتة انتهت من حياته كعواصف الرمل.. ولم تترك خلفها أى بصمة أو زهرة تبرعم على غصن طرى يوشك أن يسقط فى ظمأ الصحراء.

انشغل فى غربته بما يجنى فى حفنة من المال من اعمال صغيرة هناوهناك تكرر نفسها أو تتسى مع مرور الايام. ويصب المال اخيرًا فى مطالب يومية تستهلك العمر والصحة وسنوات من الشباب.

مـر العـمـر فـى عـزلة من نبض التـجـدد وحس المغـامـرة. من احـسـاس بما يـحيطه من جـمـال وفن وعـراقـة وجنون. فـانزوى فـى جـحـره الصـغـيـر يجـتـر احـزانه ومله ناسـيًا ان لبـاريس أوجـهًا لم يعرفها بعد.. صوتًا جميلاً لم تسمعه اذناه طوال عشر سنوات من وجوده فيها.

وهو عندما يتحدث عن تجربته كديك فصيح.. ينفش ريشه ويتهيأ لإلقاء محاضرة فى الكفاح والمعاناة التى مر بها فى بداية مجيئه لباريس من أجل الدراسة وطموح بلقب كبير وفضفاض يتباهى به بين اقرانه فى القرية. وغسل الصحون فى المطاعم الصغيرة وباع الزهور فى المترو ومارس اعمالا صغيرة ودونيه هنا وهناك حتى يتغلب على مصاعب الحياة ويحصل على لقمة العيش المرة بكثير من الصبر والتعب.

لكنه بعد أن درس ونجح واخذ فرصته فى العمل.. تصور أنه وصل إلى أقصى طموحه العلمى والنظرى فارتكن إلى شهادته وإلى لقبه الذى اصبح فى هذه الايام فى متناول الكثير من الذين لازالوا يرادحون فى مكانهم دون اى تطور ابداعى. ناسيًا أن باريس اشبه ببحر يتجدد عطاؤه فى مختلف انواع الثقافات والعلوم التى تصب فيها من كل ارجاء العالم لتمنح من يدخل فى بوابتها مفاتيح الفردوس الانسانى والمعرفة الواسعة بكل تجارب الحياة وآفاق الحضارة الانسانية.

وصديقنا صاحب اللقب الفضفاض الذى عشق حرف الدال ووضعه أمام اسمه فى مناسبة أو غير مناسبة يتفاخر به ويعشقه

ويحتار فيه مثل طفل صغير أعطى لعبة من حجمه فأدهشته وأفرحته ولكنه لم يعرف كيف يلعب بها أو يحافظ عليها لذلك لم تغير تلك اللعبة (الشهادة) من منطقه وجوهره ومفاهيمه في الحياة. فظل يراوح في مكانه رافضًا مغادرة تلك الدائرة الضيقة التى سقط فى دوامتها لذلك تعامل مع الدال كتجارة رابحة فى عصرنا المادى الحالى.

وظل مع المرأة رفيقة العمر والحياة،. يحافظ على تخلفه وعاداته القديمة مثل (سي السيد) العتيق العريق. فالمرأة عليها أن تكون فى اطار ظله وآساره المتواضع وجارية يحكمها بمنطق الماضى وعقده القديمة. نسى انها مثل تركض مع صباحات باريس الباردة لتعمل فى دوام طويل يستنزف عمرها وشبابها .. وتلهث بين الكتب والمعارض والنشاطات اليومية الثقافية لتتعلم وتطور نفسها .. وفى نهاية الأمر يريدها امرأة مطيعة تحقق له واجباته وتدفئ له حياته وتغنى عالمه شرط أن يكون العطاء من جهة واحدة.. والمستفيد هو «سى السيد» فقط وبنفس الوقت يريدها أوربية الطبع فى المشاركة المادية تدفع حساب فنجان قهوتها وثمن عشائها وإذا ما اشترى هدية صغيرة عليها أن تبادر وباسرع من البرق برد مثيلها له.. أسوة باخوانه وجيرانه من الأوروبيين المتحضرين،. وللاسف يتعامل مع الاجنبية بمنطق آخر.. منطلقا من عقدة الخواجة التي تحكمه وتسيطر علي العقلية الشرقية. فيحق للفرنسية المتعجرفة المدللة ما لا يحق للعربية المسكينة التى قد لا تلتقط فتات الحنان والحب التى يجود بها اخونا العربى على فتاته الشقراء الخواجاية.

فهو ارنب معها وثعلب خادع ماكر من بنت بلده وحرية الفتاة الغربية حق مكتسب لها وليس للرجل الشرقى الاعتراض عليها أو حتى ابداء استياءه منها حتى ولو كانت تصيب كرامته ورجولته. وهى تنظر إليه من عليائها ولا تتورع أن تتعامل معه بدونية من خلال احساسها بعقدة التفوق الأوربية. خصوصًا إذا كانت العلاقة بينها وبين الجل مبنية على ما تقدمه له من مصلحة شخصية كالاقامة والجنسية، والمسكن. وهكذا يعيش العديد من الشباب العربى الذين يأتون إلى باريس صفر اليدين من المال والتجربة متصورين انهم سيدخلون بوابة الفردوس. ولكنهم ما ان يصطدموا بعقبات الحياة اليومية الاستهلاكية حتى يتململون.. ويبدأون فى البحث عن أقصر الطرق وأسرعها لاختصار المتابع والتعقيدات من خلال زواج أبيض أو ملون مع أمرأة فرنسية يعيشون فى كنفها ولو كانت تشبه «أمنا الغولة».

وأعرف شابًا عربيًا وسيمًا جاء من بلده بعد أن تخرج من كلية الحقوق ليكمل تخصصه العالى ويبحث عن طريق أفضل للحياة العمل.. متصورًا أن الهجرة إلى بلد أوربى هى اقصر الطرق للنجاح والمال والحرية المفقودة. وعندما ضاع فى شوارع باريس جائعًا تعبًا.. لم يجد فرصة العمل لانه بلا اوراق تخوله هذا الحق، لذلك تزوج من أول امرأة فرنسية وجدها امامه، وتقبل به راضية لتمنحه كل الامكانيات التى يريدها. الجنسية والمسكن اللائق. والضمانات الاجتماعية التى تقيه ذل السؤال والحاجة. لكنها كانت دميمة بشعة لم تجد من ابناء بلدتها من يدفأ فراشها ويمنحها الحب والحنان المفقود الا ان هذا المسكين رضى بحظه ونصيبه ورأى نفسه يدخل

فى مطب لم يحسب له حساب.. فقد كانت هذه المرأة معقدة سليطة اللسان فظة الطباع، عاملته طوال سنوات حياته معها معاملة الخادم الذى لا يرفض لها طلب، أو أمر، لانها كانت تشعر فى قرارة نفسها بأنها سيدة البيت وصاحبته. يعيش من مالها وعزها. وجد نفسه ذليلاً تافهًا أشبه بنعجة استسلمت لمصيرها ولعصا الراعى التى تلسع قفاها بلا رحمة. تقوقع هذا الرجل يائسًا تعبًا، خصوصًا بعد أن صار له ثلاثة أولاد منها لم يعد باستطاعته الهروب من المصيدة التى وقع فيها ففقد مع الزمن احساسه بالحب والفرح. حتى حنينه إلى الوطن تلاشى من ذاكرته منذ حصوله على جواز السفر الاحمر الجديد الذى منحه جنسيه غريبة عن لونه الاسمر ولسانه العربى وتقاليده التى لم يعد يربطه بها اية صلة.

حتى أولاده شعر انهم غرباء عنه اسمًا ودينًا ولغة.. تشربوا من والدتهم التربية الغربية حتى صار من الصعب أن ينتموا يومًا إلى والدهم العربى المسلم أو إلى اصولهم القديمة التى لا يعترفون بها.. ويصرون ان يكونوا مثل والدتهم فرنسيين طبعًا وتطبيعًا إلى الأبد.

اما الاخ المثقف الذى حمل لقبه الرنان وكان يعشق أن يردده بينه وبين نفسه وأن يضعه أمام اسمه في مناسبة أؤ غير مناسبة فقد خسر هو الآخر الحب والدفء والعلاقة المتكاملة مع المرأة. عندما اصر ان يدفن رأسه كالنعامة فى رمال باريس المتحركة.. وخشي ان يواجه الحقيقة التى تحيط به فاصر على أن يعيش تناقضاته بين رجل متخلف .. ومودرن.. تلك التى قطعت شعرة معاوية.. بينه وبين المرأة التى احبها. صرخت فى وجهه كنمرة شرسة.. انت انانى..

فى داخلك رجل امى لم يتعلم بعد أبجدية الحياة. شهاداتك العالية لا تهمنى ولا لقلبك التافه لانه فارغ من محتواه كصدفة البحر التى القت بلؤلؤتها فى الاعماق، واصبحت مجرد قشرة لماعة.

انت لست إلا مجرد ببغاء ترمى بكلام مجانى فى الهواء ليتحول إلى فقاعات من صابون تتلاشى مع أول نسمة، انا لا أريد أن أعيش مع خزانة كتب أو قاموس كلمات. اريد رجلاً يمنحني دفئًا افتقد إليه، صقيع غربتى، رجلاً يحترم تجربتى كلها ماضيًا وحاضرًا. استقلاليتى التى تعبت من اجل ان اصل إليها ليكون لى حق الاختيار فيما ارغب أو لا أرغب. رجلا يحب تفاصيلى الصغيرة.. جنونى، وحمتى وصخبى.. يحبنى كما أنا.. أمرأة من نار وماء.

صمت صمتًا طويلاً.. لم يجد عنده ما يقوله.. حزن كطفل سرقوا منه لعبته الاثيرة.. ولأنه كان يحب ما يمتلكه فقد جن جنونه بحث فى معجم كلماته المنمقة عن كلمة ما تعيدها إلى حظيرته لتريس نهايتها عن شواطئه المستنقعية الضحلة. ولكنها توارت من وجهه الى الابد دون آن تلتفت خلفها مرة واحدة،. لقد فضل هذا الرجل أن يتعامل مع الثقافة على أنها مجرد لغو وكلام سخيف ينشره على نوافذه المغلقة كغسيل وسخ تراكم عليه غبار السنوات منذ زمن لم يكن لديه ما يضيف عن معلومات قديمة حفظها غيبًا من موضوع رسالته الجامعية فدار حولها مغمض العين عما حولها ولان المدينة فضفاضة عن وجوده الصغير المتواضع. فقد ضاع فى بحر متماوج بغرباء مثله يحملون الالقاب والشهادات والاختصاصات العالية.. وينتهون كالاسماك الصغيرة فى اعمال

بسيطة لا تناسبه ماديًا أو معنويًا مع عمر صرفوه بتحصيلها. ودفعوا فى النهاية ثمنًا فادحًا للغربة التى تستنفذ الشباب والفرح إذا لم يعرف الانسان كيف يتعامل مع هذه المدينة بتفاصيلها الجميلة الرائعة ليغترف من بحرها.. وينجو من احساسه بالضآلة.. والهامشية فى عالمها الكبير الصاخب والعظيم.

لقد انكسر كل شيء فى أعماقه.. عندما تركته.. ونجت بنفسها تحررت من عقده.. وتوافهه.. وشرنقته التى يدفن فيها نفسه ليخسر الحياة نفسها بلا مقابل.. ولا معنى.

امرأة من البنفسج
فى آنية باريس

عندمـا انتهت من وضع اللمسـات الاخـيرة على غـلاف الكتـاب الذى كلفـهـا به احـد الكتـاب العـرب المعـروفـين.. تأملت الماكـيت باعـجاب ودققـت فيه كمـا لو كان مولودها الـذى جاء بعـد مـخاض طويل. احست بان حـمـلاً ثقـيلاً انزاح عن كاهلهـا أو كأنهـا انتهت من بوحهـا الرقيق فى قصـيدة اللون والخطوط بعد طول صـمت وترقب عـاشت مع شـخصيات الكتـاب وفى تفـاصيل حياتهم لحظة بلحظة تتسج فى النهـاية خـلاصة الفكرة مـجسـمـة فى مـاكيت انيق، كلفـهـا الجهد والوقت والسن الطويل حتى استنفـذ اعصـابهـا واحاسـيسـهـا الفنية المتـراكمـة المخنوقة فى داخلها دون أن تجد نافذة تطلع منهـا إلى خير الوجود بعد احسـاس الخـواء والظمـأ الشديد. أو كـأنما لم

يعد لديها ما تعطيه بعدما شغلتها الحياة اليومية عن العطاء الحقيقى الذى كانت تنظره وتأمله دائمًا.

عندما قدم لها الكاتب مخطوطة لتحقق له غلافها شعرت بالعودة إلى نفسها القديمة المتروكة فى قاع مهملة.. يأكلها الصدأ. والزمن المهدور بلا حساب كان عليها تلك اللحظة أن تزيل ما تراكم عليها من غبار النسيان لتحررها من عبوديتها وتطلقها كعصافير السنونو فى كل الاتجاهات.

عاشت حلمًا جميلاً. وحطت عند الكلمات تقرؤها وتمعن فى الغوص فيها لتفجر ابداع الريشة التى نامت فى أدراجها منذ زمن طويل.

عندما انتهت من المرحلة الأولى. احست بنوع من شبع روحي يغمر كيانها بطمأنينة وسعادة لم تعرفها منذ تركت مدينتها الغافية فى حضن جبل قاسيون مع ضوء القمر وهمسات العشاق من جوانبه المعتمة القصية سلمت الماكيت إلى المطبعة وانتظرت ان تقطف الثمرة ناضجة طيبة.. لترى اسمها محفورًا خلف الغلاف يعلن عن ولادتها كفنانة مبدعة. وتصورت ان المستقبل سيكون اكثر وضوحًا واشراقًا والخطوة الاولى بدأت منذ لحظة ولادة الغلاف الاول. الذى كان صوت ابداعها بعد صمت طويل.

نسيت وخزة الالم الحادة فى كتفها ورقبتها.. تجاوزت وهمها الكبير.. وآلامها التى تتنامى يومًا بعد يوم دون أن يسكنها علاج أو مسكنات تبتلعها دون توقف. حتى انها استسلمت لقدرها للحقيقة

المرة التى واجهها بها طبيبها الفرنسى المختص بعد سلسلة طويلة من فحوص وكشوف وتحاليل ليقرر أن الورم سرطانى ثمانين بالمائة. ويجب استئصاله بعملية جراحية غاية من الدقة والخطورة.. احست بشوكة حادة تنغرس فى صدرها وهى تتلقى الصدمة تلو الأخرى. وتذرعت بالأمل والشجاعة. وربما تفاءلت بعشرين بالمائة تركها الطبيب معلقة. وقد تبدد الوهم ورحلة العذاب الطويلة أو ربما يورق برعم أخضر فى رماد الحريق أو على أرضها الصخرية المالحة تمددت على السرير تعبه. تأملت الجدران الزرقاء. والستائر المطرزة. وعادت بذاكرتها ثلاث سنوات إلى الوراء. عندما استلمت الأستديو الصغير وكان أشبه بمكان مهجور أو (خرابة) عاش فيها المستأجرون السابقون فسادًا وتخريبًا وتركوا بصماتهم واضحة فى الجدران المليئة بخرابيش الاطفال والنوافذ المكسورة.. والارضية الوسخة التى لصقت بها اقذار لم تنفع معها المنظفات والمطهرات فاضطرت إلى كسائها بقماش الموكيت تستر معالمها المشوهة. ولكن لان اجرة الاستديو رخيصة نسبة إلى غيره. قبلته بعلله ومساوئه. وبدأت فى تغييره كليًا فهى كمهندسة ديكور وفنانة تشكيلية استطاعت أن تحول هذه الخرابة إلى عش جميل ليعكس شفافيتها وذوقها الخاص. دهنت جدران الغرفة باللون الازرق الفاتح. كانما تهرب من لون سماء باريس الرمادى الباهت إلى بلادها الجميلة. خاطت قماش الستائر التى اختارتها بعناية من سوق الاقمشة واشترت مقعدًا عاث فيه الزمن من سوق الكلينكور بسعر بخس. وحولته باصابعها الرقيقة إلى مقعد مودرن وقد غطته

بقماش مزهر الوان وورود الربيع وتحول الاستديو إلى شيء جميل فيه خصوصيتها وشخصيتها الخاصة بعد أن اضافت إليه اشيائها الدمشقية الحميمة التى حملتها معها فى رحالها. وسائد البروكار واغطية الاغبانى المطرزة بخيوط الذهب. لوحة من الموزاييك تعكس فى هندستها الدقيقة عراقة فن الارتيزانا الدمشقى. صينية من النحاس المنقوش باليد من سوق الحميدية، وادوات صغيرة من زجاج يدوى كانت قد اشترته من مصنع دمشقى قديم. اشياء هنا وهناك. هى جزء من ذاكرتها.. ومن عشقها لمدينتها ولحكايات متراكمة فى ذاكرتها تنبض كل مساء مع اغنيات فيروز والموشحات.. ويامال الشام، تنعش وجدانها فى ساعات الوحدة لتبدد الضباب المثقل على القلب كجو باريس الرمادى.

ومع كل مساء تبحر فى سفن التيه.. تبحث عن مرفأ للامان لاستقرارمؤقت يمنحها بعض السكينة والامل.

وخز الالم عاد إلى رقبتها من جديد اكثر حدة. تحسست مكان الورم.. ثم بحثت عن قرص المهدئ تسكت فيه اوجاعها وعقلها المترقب للحظة الولادة التى تنتظرها من ظهور الكتاب الذى سيعيد طلتها بعالم الريشة والالوان. تبحر فى تيه جميل وشاعرى،. ابتسمت لقطتها البيضاء «ياسمين» التى ماءت بنعومة وتمسحت عند اقدامها كانما تذكرها بوجودها الحميمى معها. لقد عوضتها «ياسمين» عن كل ما افتقدته من الصداقة والامومة منذ ان حملتها صغيرة منمنمة لازالت مغمضة العين كانما خارجة لتوها من رحم

امها. ربتها.. واعتنت بها وكانت هذه القطة الجميلة ذات الوبر الناعم والعيون الخضراء رفيقة الوحدة على مدى سنوات الغربة الثلاث كبرت القطة الاليفة. وصارت تفهم صاحبتها من الاشارة. تستوعب دموعها ،وحواراتها. تستقبلها عند الباب ماأن تسمع خطوتها على السلم الخشبى بمواء فيه الفة الفرح والتودد. وكانت ياسمين مدللة وأثيرة لدى صاحبتها تحملها معها فى سلتها الخاصة اينما ذهبت كانما تخاف عليها الوحدة وتخشى عليها من مرض الاكتئاب اذا اهملتها أو تناستها.

تذكرت تلك السنوات التى مرت عليها منذ أن تركت بلدها كانه شريط سينمائى حافل باحداثه الدرامية، واستغربت كيف استطاعت الصمود والصبر وان تجتاز المحنة دون أن تقع فى مرض العصر الذى يصاب به الرجال والنساء ويحتار به اطباء علم النفس والصحة النفسية وهو مرض الاكتئاب أو الانهيار العصبى الذى اصبح موضة شائعة تعيشه نساء اوروبا منذ فقدن الحب والعائلة واحساس الامان فى هذاالزمن المادى الصعب.

وهى صديقتى جاءت إلى باريس من بيت عائلى عريق لازال يتعايش مع عاداته وتقاليده الاجتماعية القديمة من الحفاظ على الأصول، والتمسك بأواصر المودة مع الناس والجيران والعائلة فنانة حساسة. شهدت دمشق معارضها الناجحة وابداعاتها العديدة لكن حظها فى الزواج كان عاثرًا وسيئًا تنافرت فيه الطباع بين الطرفين واختلفت الكفاءة بينها وبين زوجها رجل الاعمال الثرى اكتشفت

بعد فترة قصيرة من الزواج بان عالمها يختلف عن عالمه اختلافاكبيرًا وكأن هوة سحيقة تفصل بينهما. فهى بقدرما عشقها للفن واحلامها الكبيرة فى العطاء والابداع بقدر ماكان عاشقًا لعمله التجارى لصفقاته وارقام حساباته فى البنوك المتعددة كانت اشبه ببنفسجة رقيقة بحاجة إلى انائها وروائها، وكان هو اشبه بصخرة مالحة تكسرت عليها وتحولت أحلامها إلى دمية من قماش حريرى يزين بها صالونه الفاخر أو زهرة جميلة يعلقها فى عروة سترته كمظهر اجتماعى لابد منه لرجل ناجح مثله.

عندما طلقته بعد سنوات من المعاناة والقهر خرجت من البيت صفر اليدين الا من ثوبها. تركت له اشياءها الصغيرة التى تعتز بها وتفاخر بانتقائها من كتب ولوحات ومطرزات صفتها بيدها. خرجت من اسوار الزوجية إلى الحرية التى كانت بالنسبة اليها اثمن شىء فى الحياة. حرية واسعة اتجهت اليها مسحورة. تحلم بامتلاك مفاتيح المستقبل واستعادة بريق الابداع الذى هجرته مرغمة مكرهة.

بحثت فى بلدها عن وجودها الجديد فى مجتمع المبدعين والفنانين لكنها وجدت نفسها فى غابة تمتلئ بالثعالب الصغيرة والكبيرة وهى بالنسبة لهم لقطة أو فرصة لاصطيادها وهى المطلقة الجميلة الشابه.

كانت مثل عصفور تغرد على شجرة حريتها وهى تعرف ان عشرات الصيادين يحومون حولها بشهية المحرومين. يغتصبون منها

فرحة احساسها الجديد بالانعتاق من سجن رهيب وقاس اسمته الحياة الزوجية غير المتكافئة.

قررت ان تبحث عن عالم جديد مختلف تبنى فيه تجربتها الذاتية بحرية واختيار بعيدًا عن تقاليد اجتماعية تطوقها من كل جانب وتحول بينها وبين ممارسة انسانيتها فى الاختيار والعطاء والتفكير وحق تقريرمصيرها كما تحب وتراه من مصلحتها ومستقبلها.

رأت فى مدينة باريس ما يرضى طموحها القديم فى استكمال دراستها العليا فى الفن التشكيلى مدارسه ومذاهبه وفلسفته. وفى باريس مدينة النور والجمال ما يغنى تجربتها العلمية والخاصة من خلال ما تحفل من معارضٍ ومتاحف وتظاهرات فنية عالمية.

لقد بهرتها باريس عندما زارتها عدة مرات كسائحة متفرجة تعرفت على تفاصيلها بعشق وحميمية وأحبتها حتى العشق عندما داخت فى متاهاتها وسحرها وغموضها تكتشف فى كل لحظة الجديد والجميل والمثير. وهذا ما جعلها فى حالة ظمأ دائم للاكتشاف. لكن الرحلة القصيرة لابد أن تنتهى كحلم جميل وتظل باريس تتألق فى ذاكرتها مثل وردة من الضوء فى متاهات العتمة.

وعندما قررت اختيار وطن بديل. وضعت باريس فى اول اختياراتها فهذا البلد اضافة لكونه موطن الفن والثقافة فهو يقدم التسهيلات العلمية للطلبة الدارسين فى جامعاته ما يغرى الكثير منهم للاغتراف من علومها وفنونها ومن هذا المنطلق بدأت تحضر

واستعدت نفسيًا رغم معارضة الاهل فى بادئ الامر.. لكنها حسمت الامر واستعدت نفسيًا لمواجهة مختلف الصعوبات الاولية التى تفرضها حياة جديدة فى مدينة كبيرة ومادية كباريس وكان عليها منذ الخطوة الأولى فيها ان تنسى تجربتها السابقة كسائحة ثرية مرهفة. تغلق عيونها عن كل ما هو مثير وجميل. وتبدأ من نقطة البحث عن تجربة حياتية منطقية ومدروسة لتصل إلى مرحلة الاستقرار والامان.

كان عليها أن تتعرف على قوانين البلد لتعرف مالها وما عليها من حقوق وواجبات وباريس بقدر ما هى شهية ورائعة الا ان اسوارها منيعة وشاهقة على من يود اجتيازها او تسلقها. عليه ان يمتلك حكمة السندباد ومهارة الفارس الذى لا يصعب عليه ترويض مهرة جامحة. اوامرأة متمنعة غامضة.

كان عليها ان تعيش وجه باريس الآخر. الوجه المتعب الصعب الذى تفيض لياليه بالارق ونهاره الطويل بمنغصات يومية ومصاعب جمة فى رحلة البحث عن وجود جديد ودائم فيها.

وكم كانت المسافة كبيرة وشاسعة بين باريس الحلم والحقيقة. وبين مفهوم السياحة والاقامة الدائمة لمن لا يتسلح بالمال والعمل الجيد مسافة قد لا يجتازها خيال إنسان عادى.. عندما يجد صعوبة مقاومة الرياح المعاكسة التى تهب عليه من كل جانب. الاقامة واوراقها المعقدة وطوابير الغرباء الطويلة فى المراكز العديدة التابعة لوزارة الداخلية. البحث عن مسكن بشروط غاية

من الصعوبة والتعقيد. ،وإيجاد العمل الذى قد يعد مستحيلاً بالنسبة لعربى لا يملك أوراق العمل أو الصلات الخاصة مع ارباب العمل العرب والاجانب.

فكيف لامرأة شرقية لازال فى عينيها بقايا من حلم شهرزادى دافئ.. ومن تقاليد واصالة مليئة بحكمة الأوصياء وممنوعاتهم وتشددهم. وهى القادمة من الشام على كتفها شال من حريد الحميدية وثوبها مخمل مطرظ بالمنمنات الناعمة التى تحمل صورة بلادنا الجميلة وشاعريتها. وهى لا تتخيل نفسها انها فى بلد الاناقة ستضطر إلى الاستغناء عن اثوابها الجميلة الفاخرة وتلبس الجينز «الكحيان» وسترة جلدية عتيقة وبوط رياضة.

عندما تركض فى صباح باريس البارد مبكرة قدر المستطاع نحو طوابيرالغرباء فى منطقة «ستى» حتى تستطيع أن تفوز بمقابلة الموظفة التى تدرس اوراق الاقامة بكثير من الدقة والتفصيل حتى تقرر مصيرها ووجودها فى هذا البلد.

بدأت صديقتى رحلتها فى اكتشاف ذاتها وامتحان قدراتها الشخصية بعيدًا عن حماية المجتمع والاهل. تلك التى ينسجونها حول المرأة كخيوط عن كبوتية يقيدونها بها عن ممارسة تطلعاتها أبعد من الحدود الضيقة المرسومة. وهى العالم الأكثر جمالاً وامانًا لترشف من عبيرها. وهى تدرك ان اجنحتها الرقيقة قد لاتصمد امام حرارة الضوء الساطع المبهر لتجرية صعبة قد تصب عليها حممها من كل الاتجاهات. ولكنها ادركت ان مع الوقت والصبر

يجب ان تصل إلى هدفها. لم تترك مجلة او صحيفة أو لوحة إعلانات الا وقرأت إعلانات العمل فيها بحثًا عن لقمة العيش الكريمة واكتشفت كم هى صعبة مواجهة ارباب العمل وتقبل وعودهم واسئلتهم المستفزة ونظراتهم الخاصة التى تحيطها بدعوات مريبة تراود جمالها وأنوثتها. كان من بينهم من يخلط الأوراق بين امكانياتها العلمية والفنية ومقاييسها الجمالية والانثوية لكنها استطاعت أن تنجو من هذه المطبات التى لابد منها لامرأة جميلة فى مجتمع فيه الخير والشر يتمثل بارباب العمل أو أصحاب القرار والمسؤولية فى تقرير مصيرها واستقرارها المادى خصوصًا وأنها لا تملك «إذن العمل» لكونها طالبة جامعية لا يحق لها ممارسة أى عمل إلا بحدود ضيقة للغاية ومن هنا واجهت غول الاغتراب فى بلد لا يعترف بالأجانب أو يكشر فى وجههم بأنياب عنصرية. وبعد الكثير من الاحباطات والجرى وراء كل إعلان يلوح لها بفرصة عمل كريمة جاءتها الفرصة عن طريق أقارب لعائلتها كانت بالنسبة إليها مثل حبل النجاة الذى أنقذها من دوامة كادت تبتلعها وتصيبها بالاحباط واليأس إلا أنها لم تفرح كثيرًا بموقعها الجديد عندما رفضت تودد أحد زملائها العزب المسؤولين الذى بدأ يساومها على العمل أو العلاقة معه وعندما أصمت أذنيها عن تودده وتهديده طلب منها بكل بساطة أن تترك العمل لأن وجودها فى جانبه بالمؤسسة يثير فيه الاضطراب العاطفى والنفسى.

تركت العمل خوفًا على كرامتها وصونًا لنفسها وبدأت من جديد فى الدوران فى متاهة البحث عن عمل آخر تحاصرها كوابيس

الخوف من اقترابها من مرحلة العوز واليأس لكن فرصة أخرى أطلت من جديد لترشحها للعمل فى إحدى المؤسسات المالية العربية الضخمة كعاملة «سنترال» ترد على المكالمات الهاتفية بلغات ثلاث تتقنها منذ طفولتها الأولى فى مدارس البعثات الفرنسية والإنجليزية فى بلدها ووجدت فى هذا العمل فرصة ذهبية للحصول على أوراق عمل وراتب معتدل، حتى تكمل دراستها العليا وتصل فيما بعد إلى عمل يناسب مؤهلاتها وامكانياتها الفنية.

لكنها لم تدرك أنها دخلت بقدميها الرقيقتين غابة من الشوك المدمى، عاشت تجربة المنافسة والمؤامرات التى تحكيها موظفات غيورات وهى تواجههم بسلاح ضعيف هو المقاومة والصبر والاحترام لنفسها والآخرين حتى وصلت إلى مرحلة من الانهيار النفسى ولم تعد تستطيع النوم إلا بحبوب مهدئة تنسيها القلق اليومى الصعب .

كانت بنفس الوقت تشرع وحبها الطفولى لشمس الحب والحرية تخاف أن تفقد اختياراتها وبراءتها فى مدينة يسيطر عليها غول الطمع والوصولية من عرب يعيشون دوامتها ويحاولون من خلال اقتناص فرص الكسب السريع وأن يصلوا إلى المال والمراكز ولو على حساب الآخرين كأنما يسرقون لقمتهم من أفواه غيرهم من أجل البقاء والاستمرار فى وجودهم الجديد كغرباء مهشمين.

ولأنها امرأة من حرير وبنفسج ابنة دمشق وقاسيون الشامخ تحمل فى داخلها براءة الاطفال وعفوية الينابيع وأزهار غوطة

الشام الجميلة كانت تتسلح ببراءتها وتكمل طريقها باصرار وهى تعرف أن الطريق مرصود بعشرات السحرة والصيادين لكن العصفور يكمل شدوه

حتى فى حصار الموت والفجيعة. وهى الفنانة التى تحمل عالما من الوان وعطور واحلام تمسكت بها رغم قساوة الكوابيس اليومية. ها هو فارسها قادم إليها. يحمل اليها دفء حبه وعواطفه.

فنان مثلها يكتب الشعر والادب. ويتعامل مع وجودها باحترام وتقدير وفهم.. يقدم إليها قلبه وعواطفه ووجوده جانبها كرجل يحميها من الوحدة والغربة. لكنها لاتستسلم لتجربة الحب بسهولة. تقترب منه وتبتعد. تضعه فى امتحان صعب مخافة أن تكرر تجربة فاشلة وقديمة لكنه يصمد أمام رفضها ويصر أن يفوز بقلبها وعالمها وهى التى ملكت قلبه وعواطفه منذ أن تعرف عليها صدفة فى أحد المعارض.

فترة طويلة من الانتظار.. والتردد.. من مواقف ناعمة وقاسية تفتعلها لتدرس شخصيته ومدى اهميتها ووجودها بالنسبة اليه. وها هو يفوز أخيرًا بثقتها وحبها ويصيران رفيقين رائعين فى بحر الغربة الشاسع فى لحظة ما وبعد سنتين من عملها فى تلك المؤسسة التى كلفتها غاليًا من أعصابها وتعبها، قررت أن تتفرغ للدراسة وتعيش من مدخراتها القليلة ريثما تحصل على عمل مناسب لامكانياتها الفنية. لكن فرصة الحظ طرقت بابها من جديد عندما اخبرتها صديقتها الحميمة أن مؤلفًا عربيًا عزم على تكليفها باعداد الغلاف لكتبه الثلاث مقابل مبلغ مغر من المال.

احست لحظتها أن صبرها الطويل قد اثمر برعمًا جميلاً يبشر بربيع مزهر لحياتها القادمة. فهى منذ زمن طويل لم ترسم ولم تبدع ريشتها الجديد خافت أن تنسى ابجدية اللون والخطوط وتستغرق فى رحلة الحياة دون هدف أو مبرر لمدة طويلة. لكنها فى تلك اللحظة احست أنها اجتازت كل بوابات المدينة الغامضة المنيعة وعليها اليوم أن تكشف وجه باريس الجميل المثير. ولاول مرة تنزل إلى مكتبة الفنون تتأمل وتشترى لوازم الرسم تنبش ذاكرتها النائمة لتعيد لها روائها بعد ماحجبتها عن الرؤية لسنوات ثلاث. هاهى تعود إلى المتاحف تتأمل اللوحات المعروضة تبحث فى الفاليرهات ومعارض الرسم المتناثرة فى احياء باريس القديمة فى الحى اللاتينى وسونمارتر وجزيرة ستى والسان جرمان. تبحث فى ازقة باريس العتيقة التى ينبض فيها الحجر ويحكى عن عظماء مروا من هنا و ركوا اثارهم العظيمة وابداعاتهم الفذة فى متحف اورسى وروردان وبوبور واللوفر.

تفتحت أمامها باريس وردة عطرة تحت مطر ناعم وسماء رمادية احست بفرح يغمر قلبها بالسعادة التى نسيت طعمها منذ سنوات.

انكبت على العمل بحماس وحب وقد امتلأ داخلها بمتعة روحية وتفجرت اللحظة إلى خطوط والوان ورؤيا ابداعية. وتعاملت مع لوحتها بعشق صوفى كان مدفونًا فى اعماقها مثل لؤلؤة منسية فى اعماق محارة مجهولة.. نسيت وخز الالم فى رقبتها وكتفها كأنما

يذكرها بحقيقة مرة تريد أن تتساها فى تلك اللحظة بالذات ورم عملية جراحية دقيقة وخوف من شلل.. وهى لايهمها الآن إلا إن تتشكل اللوحة من مخاض الوجع الطويل متكاملة جميلة تصل إلى الآخرين وكأنها خلاصة لتلك التجربة الصعبة التى اختارتها لحياتها.

اغمضت عيونها واستسلمت لحلمها الجميل فتحت نوافذها على شمس خجولة تطل من سماء باريس زقزق عصفور شقى على شجرة المشمش المزهرة ابتسمت بسعادة واحست أنها تجتاز الخطر وتتمسك بحبل الامل الجميل، قالت لنفسها لابد أن انتصر على المرض بالإرادة. وإن لم تكتب لى الحياة بعد اليوم سأشعر إننى أعطيت شيئًا للوجود فى رحلتى القصيرة واخذت من الحياة الحب والغنى والحرية.



الفهرس

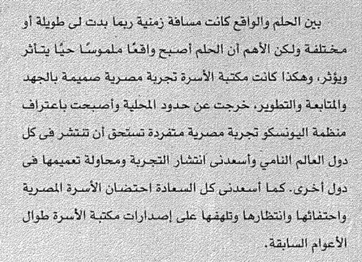
وجوه فى باريس:

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠١/١٥١٢٩

I.S.B.N 977 - 01 - 7542 - 0





بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٠
قرش

